ليلى العثمان

صوت المرأة الحرة في القصة القصيرة الخليجية

ص9

الغزو الريفي للمدينة: التحول الديموغرافي الأكبر

ص3

ماكينة الإخوان الإعلامية من إمبراطورية فضائية إلى جيش إلكتروني مشتت

ص5

العرب

أول صحيفة عربية يومية تأسست في لندن 1977

أسسها: أحمد الصالحين الهوني

السبت - الأحد 13 - 2025/12/14

22 - 23 جمادى الثانية 1447 السنة 48 العدد 13684

Saturday - Sunday 13 - 14/12/2025

48th Year, Issue 13684

www.alarab.co.uk

خطة إسرائيل لشن هجوم واسع على حزب الله جاهزة.. في انتظار القرار السياسي

تل أبيب - أكد وزير الخارجية والمغتربين اللبناني يوسف رجي، الجمعة، أنه وصلتهم تحذيرات من جهات عربية ودولية تفيد بأن إسرائيل تحضر لعملية عسكرية واسعة ضد لبنان، مشيرا إلى أنّ الدولة تكثّف اتصالاتها الديبلوماسية لمحاولة حماية لبنان ومرافقه من أي ضربة محتملة.

وقال رجي في مقابلة مع قناة "الجزيرة" القطرية نقلت وكالة الأنباء اللبنانية مقتطفات منها، إنّ "الدولة تحاور حزب الله لإقناعه بتسليم سلاحه، لكنه يرفض حتى الآن".

وكانت وسائل إعلام عبرية كشفت في وقت سابق، أن الجيش الإسرائيلي "استكمل إعداد خطة في الأسابيع الأخيرة، لشن هجوم واسع ضد مواقع تابعة لحزب الله، إذا فشلت الحكومة والجيش بلبنان في تنفيذ تعهدهما بتفكيك سلاح الحزب قبل نهاية عام 2025".

ويرى مراقبون أن التنفيذ يبقى رهين القرار السياسي داخل إسرائيل، وسط اعتقاد في أن الزيارة المنتظرة لرئيس الوزراء الإسرائيلي بنيامين نتنياهو إلى الولايات المتحدة في التاسع والعشرين من الشهر الجاري ولقاءه الرئيس دونالد ترامب سيكونان حاسمين في اتخاذ القرار.

وزير الخارجية اللبناني: وصلتنا تحذيرات من جهات عربية ودولية تفيد بتحضيرات إسرائيلية لشن عملية عسكرية واسعة

وفي 5 أغسطس الماضي صادق مجلس الوزراء اللبناني على حصر السلاح، ومن ضمنه ما يملكه حزب الله، بيد الدولة، وتكليف الجيش بوضع خطة وتنفيذها قبل نهاية 2025. لكن الجيش اللبناني أقر بصعوبة تنفيذ المهمة خلال المهلة المحددة وطرح، في سبتمبر، خطة بديلة تقوم على تفكيك القدرات العسكرية لحزب الله جنوب الليطاني قبل نهاية العام الجاري، على أن يتم نزع كامل السلاح شمال الليطاني حينما تتهيأ الظروف والإمكانيات.

وضع معقد

واضطرت حكومة نواف سلام إلى المصادقة على خطة الجيش التي لم تلاق بالواضح رضا أميركيًا، وقوبلت برفض من إسرائيل، التي تتمسك بوجوب تجريد حزب الله من كامل السلاح قبل موفى العام.

وأوضحت هيئة البث الإسرائيلية، نقلا عن مصادر أمنية إسرائيلية لم تسمها، مساء الخميس، أن "خطة مهاجمة حزب الله أعدتها قيادة الجيش بمشاركة قيادة المنطقة الشمالية وشعبتي الاستخبارات والعمليات، في إطار الاستعداد لاحتمال انهيار المساعي السياسية التي تقودها بيروت لتجريد حزب الله من سلاحه".

وأشارت المصادر ذاتها، وفق الهيئة، إلى أن سلاح الجو أجرى في الأيام الماضية تدريبات واسعة في الأجواء الداخلية وفوق البحر المتوسط، شاركت فيها مقاتلات، بهدف رفع الجاهزية لاحتمال تنفيذ العملية العسكرية في جنوب لبنان.

ونقلت الهيئة عن مسؤول أمني كبير قوله إن "إسرائيل أبلغت الولايات المتحدة بأنها ستتحرك بنفسها لنزع سلاح حزب الله، إذا لم يتم ذلك بشكل فعّال، حتى لو أدى الأمر إلى أيام من القتال أو إلى تجدد المواجهات على الجبهة الشمالية".

وأضاف المسؤول أن "واشنطن نقلت التحذير الإسرائيلي إلى الجانب اللبناني، غير أن بيروت أوضحت أن العملية معقدة وتتطلب وقتًا إضافيًا لتحقيق المتطلبات التي وُضعت".

ويأتي حديث هيئة البث عن الخطة بعد ساعات من اعتبار كتلة "الوفاء للمقاومة"، الجناح النيابي لحزب الله، أن السلطة اللبنانية "ارتكبت سقطة أخرى" بتسميتها مدنيا للمشاركة في لجنة الميكانيزم، التي تشرف على اتفاق وقف الأعمال العدائية.

ورأت الكتلة في بيان أن هذه "الخطوة مخالفة حتى للمواقف الرسمية السابقة التي ربطت مشاركة المدنيين بوقف الأعمال العدائية"، بحسب ما نقلته وكالة الأنباء اللبنانية.

وفي حديثه مع قناة "الجزيرة" أوضح وزير الخارجية اللبناني أن الاجتماعات الجارية ضمن لجنة الميكانيزم لا تُعدّ مفاوضات تقليدية. وقال "نسعى للعودة إلى اتفاقية الهدنة مع إسرائيل"، مستبعدا إبرام معاهدة سلام في الوقت الراهن.

وأنشئت لجنة الميكانيزم بموجب وقف إطلاق النار بين إسرائيل وحزب الله، وتقوم بمراقبة تنفيذه، وتضم كلا من لبنان وفرنسا وإسرائيل والولايات المتحدة وقوة الأمم المتحدة المؤقتة في لبنان (يونيفيل).

وهذه هي المرة الثانية خلال أسبوعين التي يتحدث فيها الإعلام العبري عن خطة لتوسيع العمليات ضد حزب الله. ففي 30 نوفمبر الماضي قالت قناة 13 العبرية إن "الجيش الإسرائيلي قدم خطة عملياتية لتوسيع الهجمات ضد حزب الله، وذلك خلال اجتماع خاص عُقد مع نتنياهو، بمشاركة عدد من الوزراء والمسؤولين الأمنيين".

السودان: استمرار النفط أهم من أمن المدنيين

الخرطوم - كشف الاتفاق الذي توصل إليه الجيش السوداني وقوات الدعم السريع لتولي جوبا مسؤولية حماية المنشآت في حقل هجليج النفطي بولاية غرب كردفان جنوبي السودان، عن ازدواجية في المعايير، ففيما حضرت الإرادة السياسية لدى الطرفين لتأمين تلك المنشآت غابت عن حماية المدنيين.

وتسببت الحرب الدائرة على السلطة بين الجيش وقوات الدعم السريع منذ نحو ثلاث سنوات في ارتكاب انتهاكات فظيعة بحق المدنيين، من عمليات قتل جماعي وعلى الهوية، واختطاف وتعذيب، وانتهاكات جنسية.

واستغل طرفا الصراع الجوع كسلاح ضد المدنيين، الأمر الذي خلق أسوأ أزمة إنسانية في العالم، بحسب تقييمات الأمم المتحدة. ورفض الجيش وقوات الدعم السريع حتى الآن كل المبادرات الإقليمية والدولية التي طرحت لإحلال السلام، وآخرها المبادرة الإنسانية التي عرضتها الولايات المتحدة تحت مظلة الرباعية الدولية في نوفمبر الماضي.

وتفاجأ السودانيون باتفاق سريع بين طرفي الصراع حول أكبر حقل نفطي في السودان، كانت قد سيطرت عليه قوات الدعم السريع خلال الأسبوع الماضي، بعد انسحاب عناصر الجيش إلى جنوب السودان.

وأعلن المتحدث باسم حكومة جنوب السودان أتيني ويك أتيني، في مؤتمر صحفي الخميس، أنه جرى التوصل إلى اتفاق ثلاثي بين الجيش الشعبي لجنوب السودان، والجيش السوداني، وقوات الدعم السريع، يمنح قوات الجيش الشعبي المسؤولية الأمنية الأولى في حقل هجليج.

وأوضح أن رئيس جنوب السودان سلفاكير ميارديت توصل إلى هذا الاتفاق "بعد الاتصال بقائدَي طرفي النزاع في السودان، لحضهما على وقف المعارك في محيط الحقل".

وبحسب أتيني، يقضي الاتفاق بانسحاب الجيش السوداني وخروج قوات الدعم السريع من المنطقة.

والاثنين الماضي أعلنت قوات الدعم السريع سيطرتها على حقل هجليج، مؤكدة أنها "تؤمّن وتحمي المنشآت النفطية الحيوية في المنطقة".

وليست هذه المرة الأولى التي تستهدف فيها قوات الدعم السريع حقولاً نفطية، إذ سبق أن اتهمتها السلطات السودانية بشن هجوم بطائرات مسيّرة على محطة معالجة بترول جوبا في الجبلين بولاية النيل الأبيض (جنوب) في 15 نوفمبر، ما أدى إلى توقف مؤقت لتصدير النفط.

ويعكس اتفاق جوبا حول حقل هجليج أن طرفي الصراع يمنحان الأولوية القصوى للحفاظ على مصادر الدخل الحيوية مثل النفط وتأمينها، فيما لا تنسحب هذه الأولوية على حماية المدنيين.

وفرضت بريطانيا الجمعة عقوبات على كبار قادة قوات الدعم السريع، متهمة إياهم بالتورط في عمليات قتل جماعي وعنف جنسي بشكل ممنهج وهجمات متعمدة على المدنيين في السودان.

وقالت الحكومة البريطانية إن عبدالرحيم حمدان دقلو، نائب قائد قوات الدعم السريع وشقيق قائدها محمد حمدان دقلو (حميدتي)، إلى جانب ثلاثة قادة آخرين يُشتبه في تورطهم في هذه الجرائم، باتوا يواجهون تجميد أصول وحظر سفر.

وأوضحت وزيرة الخارجية البريطانية إيفيت كوبر في بيان أن "الفظائع المرتكبة في السودان مروعة إلى حد أنها تترك ندبة في ضمير العالم... والعقوبات التي نعلنها اليوم ضد قادة قوات الدعم السريع تشكل ضربة مباشرة لأولئك الذين تلطخت أيديهم بالدماء".

كلمة العرب

بقلم: محمد الصالحين الهوني

رئيس التحرير

أوراق القوة التي تملكها تونس

في ليلة باردة من يناير، كانت الحشود تملأ شارع الحبيب بورقيبة، وهتافات "حرية، كرامة، عدالة اجتماعية" تهز أركان نظام ظل صامداً ثلاثة وعشرين عاماً. كان المشهد أشبه بمعجزة إنسانية: شعب قرر أن يغير مصيره بيديه.

اليوم، وبعد أربعة عشر عاماً، يعود نفس الشارع ليكون مسرحاً لمعجزة مختلفة: معرض تونس الدولي للابتكار الأخضر، حيث تُعرض سيارات كهربائية صممها مهندسون تونسيون شباب، وأنظمة ري ذكي طورتها شركات ناشئة لم تتجاوز أعمارها سنوات قليلة، ونماذج مصغرة لواحات شمسية ستُبنى في عمق الصحراء التونسية. المفارقة تكمن في السؤال الذي يطرح نفسه بقوة: إذا كان هذا البلد الصغير قادراً على تعليم العالم درساً في الانتقال الديمقراطي السلمي، فلماذا لا نصدق أنه قادر اليوم على تعليم العالم كيف يبني مستقبلاً مستداماً؟

السر يكمن في أن تونس 2025 تملك نفس المقومات التي صنعت "الاستثناء التونسي" عام 2011. إنها نفس روح الشباب المتمردة على المستحيل، ونفس المجتمع المدني الحيوي الذي رفض الصمت، ونفس الموقع الجيوستراتيجي الفريد الذي جعلها جسراً بين ضفتي المتوسط، ونفس العقلية الثورية التي ترفض القبول بالواقع كما هو. الفرق الوحيد أن المعركة اليوم لم تعد ضد دكتاتور بشري، بل ضد نظام اقتصادي عالمي يهدد الكوكب بأكمله، وضد تغير مناخي يتحول إلى خطر وجودي. لكن تاريخ تونس يعلمنا أن أكبر التحديات تحمل في طياتها أكبر الفرص.

لنعد قليلاً إلى تلك الأيام الحاسمة من عام 2011. كان التحدي آنذاك هائلاً: نظام سياسي متصلب يرفض أي تغيير، وآلة أمنية ضخمة، واقتصاد منهك، ومجتمع يعاني من البطالة واليأس. لكن الشعب التونسي، وبفضل مزيج فريد من الشجاعة والحكمة، استطاع أن يقلب المعادلة. السر لم يكن في القوة العسكرية أو المالية، بل في ثلاث أدوات بسيطة لكنها فعالة: التنسيق الأفقي بين مختلف مكونات المجتمع، والاستخدام المبتكر للتكنولوجيا الرقمية، وآلية الحوار الوطني التي جمعت الجميع على طاولة واحدة.

اليوم، نواجه تحدياً مختلفاً في الشكل لكنه متشابه في الجوهر: نظاما اقتصاديا عالميا قائما على الوقود الأحفوري يرفض التغيير الجذري، وآثار تغير المناخ تهدد الأمن المائي والغذائي، ومجتمعا يعاني من ارتفاع الأسعار وندرة الموارد. لكن نفس الأدوات التي انتصرت في 2011 قادرة على الانتصار مرة أخرى. نفس شبكات التواصل والتنسيق بين المهندسين والعلماء والفلاحين والناشطين البيئيين يمكنها بناء تحالفات خضراء قوية. نفس التكنولوجيا الرقمية التي استُخدمت للتنظيم السياسي يمكن تحويلها اليوم إلى أدوات للابتكار البيئي: الذكاء الاصطناعي لإدارة الموارد المائية، والبلوك تشين لضمان شفافية سلاسل الإمداد الخضراء، والبيانات الضخمة لمراقبة آثار التغير المناخي. ونفس آلية الحوار الوطني التي أنقذت البلاد من حرب أهلية يمكن أن تتحول إلى "حوار وطني للاستدامة" يجمع كل الأطراف حول رؤية مشتركة لمستقبل أخضر.

الحديث عن إمكانيات تونس في مجال الاستدامة والابتكار ليس ضرباً من الخيال أو الأمنيات، بل هو قائم على أصول حقيقية وملموسة. فلنبدأ بهبات الطبيعة التي حبا الله بها هذا البلد؛ تونس تملك أعلى معدل للإشعاع الشمسي في حوض المتوسط كله، تكفي لتزويد أوروبا كلها بالكهرباء لو استُغلت بشكل صحيح. مشروع "تونور" العملاق الذي يخطط لبناء محطات شمسية في الصحراء التونسية بقدرة 4.5 غيغاواط، ومشروع "ديزيرتيك" الأوروبي الذي يرى في تونس بوابة للطاقة الخضراء، هما دليل عملي على هذه الإمكانيات الهائلة.

الحديث عن إمكانيات تونس في مجال الاستدامة والابتكار ليس ضربًا من الخيال، بل هو قائم على أصول حقيقية وملموسة

وللطاقة الشمسية شقيق آخر لا يقل أهمية: الرياح. مع سواحل تمتد على مسافة 1300 كيلومتر، ورياح ساحلية قوية ومستمرة، تملك تونس إمكانات ريحية تقدر بـ1000 ميغاواط حسب دراسات البنك الدولي. هذا المزيج الفريد من الشمس والرياح يمكن أن يحول تونس إلى مصدّر صافٍ للطاقة الخضراء، خاصة مع مشروع الربط الكهربائي البحري مع إيطاليا الذي سيمكن من تصدير الفائض من الكهرباء النظيفة إلى الأسواق الأوروبية.

أما الكنز الحقيقي الذي تملكه تونس فهو ليس في باطن الأرض، بل في عقول أبنائها. فتونس لديها أعلى نسبة مهندسين للفرد في أفريقيا كلها، بواقع مهندس واحد لكل ألف مواطن. وهذه النخبة الهندسية تتجدد سنوياً بتخريج أكثر من 70 ألف طالب في تخصصات العلوم والتكنولوجيا والهندسة والرياضيات.

الربيع العربي بدأ من تونس بزهرة الحرية، والربيع الأخضر يمكن أن يبدأ منها أيضاً ببذور الابتكار والاستدامة. الطريق طويل والتحديات كثيرة، لكن شعباً استطاع أن يغير مصيره السياسي بين ليلة وضحاها، قادر بدون شك على أن يغير مصيره البيئي والاقتصادي. المطلوب فقط هو نفس الإيمان الذي ملأ القلوب في تلك الليلة الباردة من يناير: الإيمان بأن التغيير ممكن، وأن المستقبل يُصنع بأيدي من يجرؤون على الحلم ثم يتحركون لتحقيقه.

تونس التي علّمت العالم الديمقراطية قادرة على أن تعلّمه الاستدامة والابتكار.

ليبيا 1 دينار - السعودية 2 ريال - مصر 3 جنيه مصري - موريتانيا 120 أوقية - تونس 900 مليم - المغرب 3 دراهم - الجزائر 7 دينارات - البحرين 200 فلس - اليمن 50 ريالا - الكويت 150 فلسا - الإمارات 2 درهم - عمان 200 بيزا - قطر 2 ريال - العراق 2000 دينار - الأردن 500 فلس - سوريا 150 ليرة - السودان 50 دينارا

AUSTRIA 2 € - BELGIUM 2 € - CYPRUS 2 € - FRANCE 2 € - GERMANY 2 € - GREECE 2 € - ITALY 2 € - TURKEY 2.350.000 TL (YTL2.35) - MALTA 2 € - NETHERLANDS 2 € - SPAIN 2 € - SWEDEN 13 KR - SWITZERLAND 3SF - USA 1 $ - UK 1 £

العرب
السبت 2025/12/13
السنة 48 العدد 13684

رفع قانون قيصر عن سوريا تتويج لمسار تقوده السعودية

دعم الرياض يعيد فتح أبواب الاستثمار والدبلوماسية في دمشق

اجتماع مايو الماضي، الذي جمع الرئيس الأميركي دونالد ترامب بنظيره السوري أحمد الشرع وولي العهد السعودي الأمير محمد بن سلمان، مثل نقطة تحول أساسية في حياة السوريين سياسيا واقتصاديا.

حلمي الهمامي

نهاية قانون قيصر وبداية مرحلة جديدة لسوريا

دمشق - تحتل المبادرة السعودية موقعا محوريا في المشهد السياسي والإقليمي المرتبط برفع العقوبات عن سوريا، إذ لم يكن إلغاء "قانون قيصر" الأميركي مجرد قرار أحادي الجانب، بل تتويجا لمسار دبلوماسي عربي طويل تقود فيه المملكة دورا حاسما.

وبعد سنوات من العزلة الاقتصادية والسياسية التي فرضها القانون على دمشق، جاءت الجهود السعودية لتعيد رسم العلاقة بين سوريا والولايات المتحدة، وتفتح آفاقا جديدة للتعافي الاقتصادي والاستقرار الإقليمي.

وكانت السعودية، وفق مصادر سورية وأميركية، من أبرز الداعمين للخطوة الأخيرة، التي شهدها مجلس النواب الأميركي مؤخرا، حيث أقر مشروع موازنة الدفاع الوطني للعام المالي 2026 بندا يقضي بإلغاء العقوبات المفروضة بموجب قانون قيصر.

ويعتبر هذا القرار تتويجا لجهود مشتركة بدأت منذ عدة أشهر، اتسمت بالتنسيق المستمر بين الدبلوماسية السورية والمملكة العربية السعودية، وتوسعت لتشمل جهدا تركيًا وعربيًا إضافيا، مما عزز وزن المبادرة وجعلها محركا أساسيا للتغيير.

ويرى خبراء سوريون أن الدور السعودي لم يقتصر على الضغط السياسي أو تقديم المشورة، بل كان استثمارا إستراتيجيًا لتأمين استقرار سوريا باعتبارها دولة مركزية في المنطقة.

وكان اجتماع مايو الماضي، الذي جمع الرئيس الأميركي دونالد ترامب بنظيره السوري أحمد الشرع وولي العهد السعودي الأمير محمد بن سلمان، نقطة تحول أساسية، حيث أعلن ترامب خلاله عزمه رفع العقوبات، في خطوة اعتبرت تتويجا للجهود السعودية المبذولة على مدار الشهور السابقة.

ويشير الخبراء إلى أن الرياض نجحت في تحويل قضية اقتصادية محضة إلى أداة للتقارب السياسي، وفتح مساحة للولايات المتحدة لإعادة النظر في علاقتها بسوريا ضمن منظور أوسع يرتبط بالاستقرار الإقليمي.

وبحسب طارق كتيلة، رئيس لجنة الكونغرس بالتحالف السوري – الأميركي للسلام والازدهار، فإن إلغاء قانون قيصر يمثل خطوة هامة لتحريك عجلة الاقتصاد السوري، وبدء ضخ استثمارات خارجية ضخمة، ليس فقط في القطاع التجاري، بل في البنية التحتية والمشاريع التنموية الكبرى.

وأضاف كتيلة أن "الاقتصاد هو عصب السياسة، وهو المدخل الأساسي لتعزيز السلم الأهلي والوحدة الوطنية"، مشيرا إلى أن الجهود السعودية ساهمت في تمهيد الطريق أمام دمشق لاستعادة دورها الإقليمي والاقتصادي، وتسهيل دخول رؤوس الأموال الأجنبية، بما في ذلك الشركات الأميركية الكبرى.

> المبادرة لم تكن مجرد مسار دبلوماسي تقليدي، بل عملية إستراتيجية عميقة استثمرت فيها المملكة كل أدواتها

وفي هذا السياق أوضح الكاتب السوري علي عيد أن رفع العقوبات يفتح مرحلة جديدة من الشراكة بين سوريا والولايات المتحدة، بحيث تتحول العلاقة من توتر وعزلة إلى تعاون اقتصادي وسياسي متدرج.

وأضاف عيد أن الشركات الأميركية، مثل شيفرون في قطاع الطاقة، بدأت بالفعل إرسال وفود لاستطلاع الوضع الاقتصادي في دمشق، وهو مؤشر على أن المبادرة السعودية نجحت في خلق بيئة مناسبة للاستثمار وتحريك عجلة التنمية.

ويشير المتابعون إلى أن الدور السعودي تمثل في عنصرين أساسيين: الأول، الضغط السياسي المباشر على الإدارة الأميركية لإقناعها بأهمية رفع العقوبات، والثاني تعزيز الثقة بين الأطراف العربية والدولية بأن سوريا الجديدة ستكون شريكا مستقرا ومساهما في الأمن والتنمية الإقليمية.

وقد أدى هذا المسار إلى تغيير الموقف الأميركي تدريجيا، بحيث أصبحت العقوبات الاقتصادية مجرد أداة يمكن تعديلها وفق تطورات الواقع على الأرض، وليست عقوبات دائمة ضد الدولة والشعب السوريين.

ومن جهة أخرى، لفت كتيلة إلى مساهمة الجالية السورية في الولايات المتحدة، التي لعبت دورا مكملاً للدبلوماسية السعودية، حيث عملت على توجيه الضغوط إلى الكونغرس والتأكيد على أهمية إزالة العقوبات لتمكين سوريا من التعافي.

ويضيف أن هذا التعاون بين الرياض والجالية السورية ساهم في تحويل القرار إلى مشروع متكامل يحمل بعدا سياسيا واقتصاديا وأمنيا في آن واحد.

ويرى الخبراء أن هذه المبادرة السعودية تعكس رؤية أوسع للسياسة الإقليمية، حيث يتم التعامل مع سوريا بوصفها جزءا من منظومة أمن واستقرار تمتد من الشرق الأوسط إلى شمال أفريقيا.

ولا يعيد رفع العقوبات فقط دمج سوريا في النظام الاقتصادي الدولي، بل يشجع على تقوية مؤسسات الدولة، ويعزز فرص التنمية المستدامة، ويمهد الطريق أمام سياسات بناء الثقة بين دمشق والعواصم العربية والغربية.

وعلى المستوى الرسمي أكد وزير الخارجية السوري أسعد الشيباني أن رفع العقوبات هو "انتصار للحق ولصمود السوريين"، واعتبر الخطوة "تجسيداً لنجاح الدبلوماسية السورية التي عملت بصبر وإيمان على رفع المعاناة". كما رحبت وزارة الخارجية السورية بالقرار الأميركي، واعتبرت أنه نتاج مباشر للانخراط الدبلوماسي البناء الذي قادته الحكومة السورية مع الولايات المتحدة خلال الأشهر الماضية، مما يعكس نجاح المسار الذي تقوده المملكة العربية السعودية في هذا المجال.

ولا يمكن إغفال الأبعاد الاقتصادية للقرار، حيث يشكل رفع قانون قيصر بوابة لعودة الاستثمارات والمساعدات الأجنبية، وتحفيز الاقتصاد السوري على بدء مرحلة التعافي بعد سنوات من الأزمة.

ويؤكد الخبراء أن هذه الخطوة ستسهم في تحسين الواقع المعيشي للمواطن، وإعادة تشغيل المشاريع المتوقفة، وتشجيع الشركات الدولية على الدخول إلى السوق السورية، بما يخلق ديناميكية اقتصادية جديدة.

وبذلك، يمكن القول إن المبادرة السعودية لم تكن مجرد مسار دبلوماسي تقليدي، بل عملية إستراتيجية عميقة استثمرت فيها المملكة كل أدواتها السياسية والاقتصادية لضمان تحرك الولايات المتحدة نحو رفع العقوبات.

والنتيجة هي خلق بيئة جديدة تسمح لسوريا باستعادة مكانتها الإقليمية، والانخراط مجددا في النظام الاقتصادي الدولي، وفتح آفاق شراكة أميركية – عربية تدعم الاستقرار والتنمية.

ويمثل رفع قانون قيصر تتويجا لمسار طويل قادته المملكة العربية السعودية، وهو مثال حي على كيفية استخدام الدبلوماسية الذكية لتحقيق نتائج ملموسة على الأرض. كما يعكس القرار إدراكا أميركيا متزايدا لأهمية دعم سوريا في مرحلة إعادة البناء والتعافي، مما يضع البلد على أعتاب مرحلة جديدة من التنمية الاقتصادية والسياسية والاستقرار، ويؤكد أن التعاون العربي مع الإدارة الأميركية قادر على إحداث تغييرات إستراتيجية كبيرة في المنطقة.

ما وراء تراجع بغداد عن تصنيف حزب الله والحوثيين

سام بتلر

كشف تراجع الحكومة العراقية المفاجئ عن تصنيفها المؤقت لحزب الله والحوثيين اليمنيين منظمتين إرهابيتين عن مواطن الضعف الهيكلية في الدولة والقيود المفروضة على سيادتها.

وكان ما وصفته بغداد في البداية بأنه خطأ إداري في الواقع كشفا صارخا عن الجهة التي تُسيّر فعليا صنع القرار في العراق: الفصائل السياسية والميليشيات المدعومة من إيران، التي يطغى نفوذها باستمرار على نفوذ رئيس الوزراء ومؤسسات الدولة الرسمية.

وتثير هذه الحادثة سؤالا جوهريا: في ظل التدقيق الدولي المكثف والمخاطر المالية والسياسية المتزايدة، من يمكنه الاعتقاد بالعقلانية في أن إلغاء هذا التصنيف يخدم المصلحة الوطنية العراقية؟

وبحسب مسؤولين، لم يرَ أحد داخل الحكومة أن التراجع عن التصنيف هو الخيار الصحيح؛ لكنه حدث فقط لأن فصائل نافذة أوضحت أن الإبقاء عليه غير مقبول بالنسبة إليها.

وبالنسبة إلى رئيس الوزراء محمد شياع السوداني، تُبرز هذه الحادثة مدى خطورة الوضع الذي يواجهه.

وعلى الرغم من كونه رئيسا للحكومة رسميا، فإنه يعمل تحت سيطرة جماعات غالبا ما يطغى ولاؤها لطهران على ولائها للعراق.

ولا يُظهر هذا التراجع نفوذ هذه الفصائل فحسب، بل يُظهر أيضا هشاشة مؤسسات الدولة، بما يثير الشكوك حول قدرة العراق على تنفيذ السياسات، والحفاظ على الحوكمة المالية، وتعزيز المصداقية أمام الشركاء الدوليين.

وكان تصنيف حزب الله والحوثيين قد نُشر في الجريدة الرسمية العراقية، وهو ما أدى إلى تجميد الأصول المرتبطة بالجماعتين وجعل العراق أكثر توافقا مع العقوبات الأميركية والبريطانية والأوروبية والخليجية.

ومع ذلك، لم تمضِ ساعات حتى تراجعت الحكومة عن القرار، واصفة إياه بالخطأ، ومتعهدة بالتحقيق في كيفية حدوثه.

وتشير سرعة التراجع ونطاقه إلى ما يتجاوز مجرد فوضى بيروقراطية. فتصنيفات الإرهاب لا تُنشر في الجريدة الرسمية إلا بعد تدقيق قانوني وإجرائي.

وبناء على ذلك يشير التراجع شبه الفوري إمّا إلى غياب السيطرة على عملية صنع القرار، أو إلى وجود ضغط سياسي داخلي هائل قادر على تغيير السياسة الرسمية على الفور.

ويضعف كلا التفسيرين الثقة بالحكومة العراقية؛ إن حكومة لا تستطيع دعم قراراتها أو إنفاذها لا يمكنها طمأنة المستثمرين والدبلوماسيين والمواطنين باستقرار سياساتها.

وترتبط الكثير من الجماعات السياسية التي ضغطت لإلغاء التصنيف ارتباطا وثيقا بإيران. ويمتد نفوذها إلى الوزارات والبرلمان والأجهزة الأمنية، وتجمعها علاقات أيديولوجية ومالية بجهات إيرانية تعمل لأهداف إقليمية تتقدم على المصالح الوطنية العراقية.

وتُبرز قدرتها على فرض تراجع الحكومة مدى هيمنتها. فالمؤسسات العراقية تعمل تحت سقف هذه الفصائل التي يمكنها تجاوز الإجراءات القانونية حين تتعارض مع أجنداتها. ويعمل رئيس الوزراء ومجلس الوزراء وبيروقراطية الدولة داخل منظومة تحددها ديناميكيات هيكلية أكثر مما تحددها قرارات الأفراد.

ويلاحظ دبلوماسيون مطلعون على السياسة الداخلية العراقية أن الحكومة تتراجع كلما أبدت الجماعات المدعومة من إيران المعارضة. ويأتي إلغاء التصنيف انسجاما مع هذا الوضع. فبدلا من خطأ إداري، تكشف الحادثة عن دولة تُستخدم مؤسساتها كواجهة تتحكم من خلالها شبكات سياسية وميليشيات قوية.

ويُجسّد موقف السوداني حدود السيادة العراقية. ويصفه المطلعون على الأمر بأنه أكثر خطورة مما يظهر في العلن.

وأفاد مصدر في مكتب رئيس الوزراء بأن الإطار التنسيقي وجّه إنذارا مباشرا، محذرا من أن عدم إلغاء التصنيف فورا سيؤدي إلى احتجاجات وتصعيد كبير. وبحسب المصدر، شعر السوداني بأنه لا خيار أمامه سوى الامتثال.

وفي حين ضغطت الفصائل الداخلية لإلغاء القرار، كان رد الفعل الدولي مكلفا. فقد صرح مسؤول أميركي رفيع بأن مصداقية رئيس الوزراء تضررت بشدة في نظر واشنطن، وأن التراجع تحت ضغط الميليشيات يعد مؤشرا على فقدان السيطرة، وهو أمر لن تتجاهله إدارة ترامب، مشيرا إلى أن مكانة السوداني في واشنطن تلقت ضربة ربما لا يمكن إصلاحها. وكانت الرسالة واضحة: قائد لا يستطيع الالتزام بقراراته لا يمكنه توقع ثقة طويلة الأمد من الولايات المتحدة.

> تراجع بغداد المفاجئ عن تصنيف حزب الله والحوثيين يكشف عن مواطن الضعف الهيكلية في الدولة والقيود المفروضة على سيادتها

وحذّر المسؤول نفسه من أن المؤسسات المالية العالمية ستعتبر الحادثة دليلا على عجز العراق عن ضمان موثوقية آليات الامتثال المالي. وقد يرفع ذلك تصنيفات المخاطر، ويبطئ معالجة المعاملات، ويقيّد الوصول إلى مقاصة الدولار. وأضاف أن واشنطن تراجع فرض عقوبات إضافية، ومستعدة لاستهداف أي فرد أو جهة عراقية تهدد الأمن القومي الأميركي أو تسهّل التمويل غير المشروع. الرسالة هنا واضحة أيضا: مزيد من العقوبات المتوقعة.

ويُجسد هذا الوضع المعضلة التي يواجهها السوداني. فكل قرار حاسم يحمل مخاطر فورية: فرض سلطته قد يثير مواجهة مع فصائل نافذة، في حين أن الخضوع لها يضر بمكانته الدولية. وتجسد حادثة حزب الله/الحوثيين هذا المأزق.

فحتى الإجراءات التي تبدو سيادية، مثل نشر تصنيف قانوني في الجريدة الرسمية، تعتمد على موافقة الفصائل. ولا يستطيع رئيس الوزراء التصرف باستقلالية دون المخاطرة بردود فعل سياسية ومالية وربما عسكرية. ومع ذلك، فإن عدم تلبية التوقعات الدولية يهدد علاقات العراق مع الولايات المتحدة والاتحاد الأوروبي ودول الخليج والمؤسسات المالية (...).

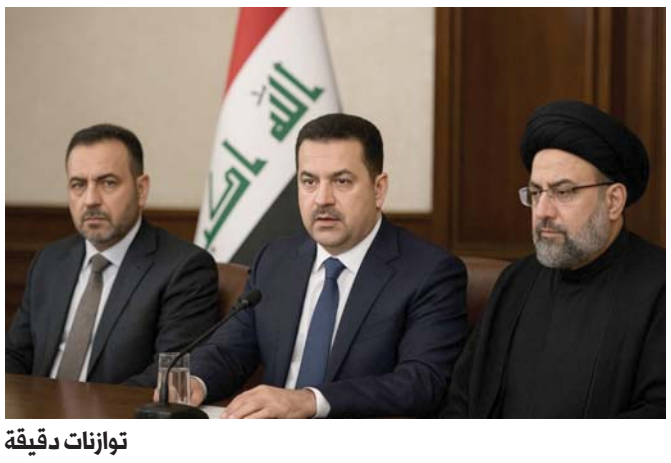

توازنات دقيقة

تداعيات أزمة المياه الخطرة في إيران تتجاوز سطح الأرض إلى باطنها

طهران - لا يبدو أن تداعيات أزمة المياه الحادة في إيران التي تحولت خلال السنوات الأخيرة إلى مشغل رئيسي لسلطات البلاد تقتصر على مظاهر الحياة وعيش السكان، بل تطال حتى باطن الأرض التي يعيشون عليها وتهدد استقرارها الجيولوجي.

وقال مستشار هيئة حماية البيئة في إيران علي بيت اللهي "إن بعض المناطق في البلاد تشهد هبوطا أرضيا مقلقا".

وفي حديث لوكالة الأنباء الإيرانية الرسمية (إرنا) أضاف بيت اللهي "في السابق كنا من الدول الغنية بالمياه، لكننا اليوم نشهد هبوطا أرضيا يصل إلى 40 سنتيمترا في بعض المناطق".

وتابع "إذا واصلنا الاستخدام غير الرشيد لموارد المياه، فسيمثل ذلك خطرا كبيرا على مدننا". وأشار إلى أن الهبوط الأرضي مرتبط مباشرة بانخفاض المياه الجوفية.

وأضاف "تأتي إيران في المرتبة الثالثة عالميا بعد الصين والولايات المتحدة من حيث اتساع المناطق التي تعاني من فقدان المياه الجوفية". وأردف "أما من حيث مساحة الهبوط الأرضي فتأتي بعد الصين وإندونيسيا، لكنها تحتل المرتبة الأولى عالميا من حيث سرعة الهبوط".

ولفت إلى أن 18 محافظة، من أصل 31 محافظة في البلاد، تشهد معدل هبوط سنوي يتجاوز 10 سنتيمترات. وذكر أن أقصى درجات الهبوط سجلت في منطقة رفسنجان بجنوب شرق إيران.

والهبوط الأرضي هو ظاهرة جيولوجية تحدث عندما ينخفض سطح الأرض تدريجيا أو بشكل مفاجئ بسبب فقدان التربة لدعمها الداخلي، ويعد استنزاف المياه الجوفية من أبرز أسبابه.

وبفعل تزايد عدد السكان والأنشطة الاقتصادية النهمة للماء من صناعة وزراعة تضاعفت حاجة إيران إلى المياه ووصل الاستهلاك إلى حدّ إنهاك موارد البلاد ومخزوناتها منها، بما في ذلك المياه الجوفية غير المتجدّدة، وذلك في ظل تغيرات مناخية تراجعت بفعلها التساقطات المطرية بشكل حادّ.

ودفع الجفاف الذي يضرب إيران منذ سنوات رئيسها إلى التحذير من إمكانية اللجوء إلى نقل الحكومة خارج العاصمة طهران التي واجهت خلال الأشهر الأخيرة خطر العطش بسبب تراجع مخزونات السدود التي تغذيها بالمياه إلى حدودها الدنيا.

ووصف خبراء الأرصاد الجوية هذا الخريف بأنه الأشدّ جفافا منذ أكثر من 50 عاما في مختلف أنحاء البلاد حتى قبل ثورتها الإسلامية عام 1979، ما يزيد الضغط على نظام يستهلك كميات هائلة من المياه بشكل غير فعال في الزراعة.

ويقدر الخبراء تراجع مستويات هطول الأمطار في أنحاء إيران بـ85 في المئة عن المتوسط، وهو ما أدى إلى استنزاف خزانات المياه وقطع الإمدادات، بما في ذلك قطعها عن مناطق من العاصمة. وفاقم سوء الإدارة والحفر غير النظامي للآبار والممارسات الزراعية غير الفعالة هذه الأزمة التي تقول السلطات إنها اشتدت أيضا بسبب تغير المناخ.

ولجأت السلطات في نوفمبر الماضي إلى تجربة استخدام تقنية تلقيح السحب لتحفيز نزول المطر صناعيا، الأمر الذي عكس حجم مشكلة المياه التي باتت تواجهها الجمهورية الإسلامية، والتي ترتقي إلى مرتبة كارثة دفعت السلطات إلى التفكير في حلول قصوى من قبيل إغلاق العاصمة ونقلها من موضعها.

العرب
السبت 2025/12/13
السنة 48 العدد 13684

الغزو الريفي للمدينة: التحول الديموغرافي الأكبر

كيف أعادت هجرة الفلاح تشكيل الهوية والسلطة في العالم العربي

في أقل من قرن انتقل مئات الملايين من الأشخاص من الأرياف إلى المدن العربية، ليس بحثاً عن حياة أفضل فحسب، بل هربا من الفقر والإهمال والجفاف. هذا الانتقال الجماعي الصامت لم يكن مجرد هجرة سكانية، بل غزوا ديموغرافيا شاملا أسقط المدينة التقليدية، وأنجب مدنا هجينة، وأوصل الفلاح إلى قصر الحكم، وأشعل في النهاية ثورات وحروبا. هذا النص يروي قصة ذلك الزلزال البشري.

علي قاسم
كاتب سوري

تتجلى المفارقة الكبرى للمدينة العربية المعاصرة في تناقضها الصارخ: بين زحامها الذي لا يحتمل واغتراب سكانها، من جهة، وامتدادها الأفقي الهائل وانكماشها الروحي والوظيفي من جهة أخرى. هذه المفارقة ليست قدرا محتوما بل هي حصيلة التحول الديموغرافي الأعمق في تاريخ المنطقة الحديث: ما يمكن وصفه، من دون مبالغة، بالغزو الريفي للمدينة، الذي حوّل الملايين من فلاحي الدلتا وسهول الفرات وجبال اليمن إلى سكان عشوائيات تحيط بالعواصم، لم يكن مجرد حركة سكانية بل كان زلزالاً أعاد تشكيل الهوية والسلطة والمكان في العالم العربي برمته.

أربع موجات من الغزو

إن فهم مصطلح "الغزو" هنا يتطلب تحرره من دلالاته العسكرية المباشرة. فهو لا يشير إلى هجوم مسلح، بل إلى عملية اجتماعية صامتة لكنها جارفة، تتمثل في استيطان جماعي غير منظم للمدينة من قبل قادمين جدد يحملون معهم منظومة قيم وعلاقات وأنماط عيش مغايرة جذريا للحياة الحضرية التقليدية. هذا يختلف عن الهجرة العضوية التي ترافق التصنيع وتتم بشكل تدريجي، إذ أن ما شهده العالم العربي هو "تمدن دون تصنيع"، حيث تدفقت الجموع نحو المدن بحثاً عن الخدمات والوظائف الحكومية في اقتصادات ريعية، لا نحو المصانع في اقتصادات منتجة. كانت المدينة العربية العتيقة، بمزارعها وبساتينها الداخلية ونسيجها العضوي وأحيائها المتمايزة بمهنها، كائنا متوازنا بين البشر والطبيعة. أما اليوم، فقد تحولت إلى فضاء مكتظ بكتل إسمنتية عشوائية، تعبيرا ماديا صارخا عن هذا الغزو غير المخطط له.

> المدينة العربية المعاصرة ليست حضرية خالصة ولا ريفية خالصة، بل كيان هجين متوتر، يحمل كل تناقضات المجتمع الأوسع

ولم يكن خروج الفلاح من حقله عملاً طوعيا محضا، بل كان هروبا من واقع أصبح لا يُطاق. ففي المجال الاقتصادي، أدت سياسات الإصلاح الزراعي غير المدروس، وتفتيت الملكيات عبر الميراث، وتبعية الفلاح لمراكز التسويق والمقرضين، إلى إفقار متزايد. وجاءت سياسات التحرير الاقتصادي في الثمانينات والتسعينات لتكسر ظهر الفلاح الصغير، عبر إلغاء الدعم وفتح الأسواق أمام الواردات المدعومة. سياسيا، غذّت المركزية الشديدة للسلطة هذا التوجه، حيث تحولت العاصمة إلى وحش جبار يستنزف موارد الأرياف لخدمة نزواتها التوسعية، تاركة الريف بلا استثمارات حقيقية في البنى التحتية أو الخدمات. أما اجتماعيا فقد عملت وسائل الإعلام والتعليم على ترسيخ صورة المدينة كجنة للفرص والحرية والتحضر، مقابل صورة الريف كمكان للتخلف والفقر. ولم تكن العوامل البيئية، من تصحّر وندرة مياه وتغير مناخي، سوى العامل الأخير الذي دفع مجتمعات بأكملها، كما في السودان واليمن، إلى حافة الهاوية فاختارت الهجرة كملاذ أخير.

ويمكن تتبع موجات هذا الغزو عبر عقود. ففي الخمسينات والستينات، بعد الاستقلال، بدأت أولى الموجات مع بدايات التصنيع الوهمي والتحول نحو الدولة المركزية. ثم جاءت طفرة النفط في السبعينات والثمانينات لتسرّع العملية، حيث خلقت وظائف حكومية وهمية في المدن وجذبت الملايين. ومع تطبيق سياسات الخصخصة والعولمة في التسعينات، انهارت الزراعة التقليدية بشكل كامل وظهرت لأول مرة "مدن الصفيح" بشكل واسع ومنظم. أما الموجة الرابعة والأكثر دموية، فقد جاءت بعد عام 2011، حيث تحولت الهجرة من فعل اقتصادي إلى هروب من الموت في سوريا واليمن وليبيا، محوّلة المدن إلى مخيمات نزوح هائلة.

بلدان خمسة... مصير واحد

تُعد مصر النموذج الأبرز لهذه الظاهرة. فالقاهرة الكبرى، ذلك المغناطيس الساحق، استقبلت جحافل من أبناء الدلتا والصعيد، محولة ضواحيها إلى امتدادات للريف في شبرا الخيمة وحلوان. وكانت العواقب وخيمة: عمرانيًا، اختنقت المدينة واختفى أخضرها وتحول نيلها إلى مجرى للصرف. اجتماعيا، صعدت "الثقافة الشعبية" الريفية بلهجتها وموسيقاها وقيمها إلى قلب المشهد، متحدية النخبوية الثقافية التقليدية. سياسيا، تحول الحزام الفقير المحيط بالعاصمة إلى قاعدة جماهيرية للاحتجاج، كما في انتفاضة 1977، ثم لاحقاً إلى معقل للأحزاب الدينية. وأمنيا، تحولت عشوائيات مثل المقطم ومنشأة ناصر إلى دويلات داخل الدولة، تسيطر عليها قوى موازية وتفرض قوانينها الخاصة.

أما في سوريا فقد اتخذ الغزو شكلاً مختلفاً لكن بنتائج أكثر كارثية. فالمهاجرون من ريف الساحل وحلب ودرعا والحسكة حملوا معهم إلى المدن بناهم العشائرية والطائفية، ما أدى إلى "ترييف" المدينة. وتحولت أحياء دمشق مثل المزة وكفر سوسة، وأحياء حلب مثل الصالحين، إلى كتل إسمنتية خالية من الهوية الحضرية. سياسيا، استغل النظام هذا التحول لـ"ترييف" جهاز الدولة والأمن، حيث أصبحت المناصب الحساسة بيد أبناء العشائر الريفية الموالية، ما قوّى الولاء الشخصي وأضعف المؤسسة. ولم يكن مفاجئا أن تكون أحياء الريف المحيط بالمدن، مثل غوطة دمشق وريف حلب، بؤر الانتفاضة الأولى في 2011، كاشفةً عن عمق الشرخ المكاني والاجتماعي الذي غذّاه هذا النوع من الهجرة لعقود.

وفي السودان، اتخذت الظاهرة طابعا تراكميا مأساويا. فالخرطوم الكبرى تحولت إلى "ملجأ أخير" ليس فقط لأبناء الريف الفقراء، بل أيضا لنازحي حروب الجنوب ودارفور وجنوب كردفان. وعمرانيا ظهرت حول العاصمة "مدن طينية" هائلة، مثل أم درمان بحري، تفتقر لأبسط مقومات الحياة، بينما اختفى الطابع "النخبوي" الذي ميز الخرطوم تاريخيا. اجتماعيا، أصبحت العاصمة بانوراما لقبائل وأعراق السودان كافة، لكن دون أن تتحول إلى بوتقة انصهار، بل إلى ساحة لصراعات هوية حادة. سياسيا، كانت هذه الضواحي المهمشة حاضنة رئيسية لغضب أدى إلى ثورة 2018 – 2019، حيث خرج سكانها مطالبين بإسقاط النظام الذي أهملهم لعقود.

أما ليبيا فقدمت نموذجا فريدا حيث حوكمت العملية من أعلى. فتحت نظام القذافي، شُجعت هجرة أبناء القبائل من الجنوب والمناطق الداخلية إلى الشريط الساحلي عمدا، في سياسة تهدف إلى كسر شوكة النخب الحضرية التقليدية في طرابلس وبنغازي وإحلال ولاءات قبلية محل الانتماء المدني. وكانت النتيجة عمرانيا هي نمو عشوائي ضخم دون بنى تحتية. سياسيا، تفكك النسيج الحضري واستُبدل بشبكة معقدة من الولاءات القبلية داخل نطاق المدينة نفسها، وهو ما مهّد تماما لساحات القتال العشائرية – القبلية التي شهدتها البلاد بعد سقوط النظام. واقتصاديا، حوّل اقتصاد الريع النفطي هؤلاء المهاجرين إلى موظفين حكوميين دون إنتاجية حقيقية، مع الحفاظ على ارتباطهم العضوي بالقبيلة كمصدر للرزق والحماية.

ولعل اليمن يقدم النموذج الأكثر دراماتيكية على تحطم المدينة تحت وطأة هذا الغزو. فهجرة أبناء الأرياف الجبلية الفقيرة من محافظات مثل حجة وعمران وصعدة إلى صنعاء والحديدة، مدفوعةً بالفقر المدقع ثم بالحرب، كانت قوة تدميرية. عمرانيا، أدت إلى تدمير النسيج المعماري الفريد لصنعاء القديمة، واستيطان الجبال المحيطة بها بعمارات خرسانية عشوائية وغير آمنة هندسيا وجماليا. مائيًا، استنزفت هذه الهجرة طبقات المياه الجوفية في صنعاء إلى درجة جعلتها أكثر عاصمة في العالم معرضة للنضوب. سياسيا وأمنيا، تحولت أحياء صنعاء إلى معاقل قبلية وعسكرية، وأصبحت ضواحيها، مثل حي الصمع، ساحات معارك رئيسية في الحرب الأهلية، وهو ما يظهر كيف أن الخارطة الديموغرافية التي رسمتها الهجرة الريفية أصبحت هي نفسها خارطة الصراع.

وقد أنتج هذا الغزو المشترك عواقب متشابهة عبر هذه البلدان. فعلى المستوى العمراني، كان ثمنه هو موت الجمال وولادة الفوضى. فاختفاء العمارة التقليدية والفضاءات العامة لصالح ما يمكن تسميته "عمارة الريع" –تلك البنايات المرتفعة الرخيصة والخالية من الهوية– حوّل المدن إلى غابات إسمنتية كئيبة. وانهارت البنى التحتية من صرف صحي ومياه وكهرباء تحت وطأة الطلب الهائل وغير المخطط له. اجتماعيا، أشعل الغزو صراعا خفيا لكنه مستمر بين قيم القرابة والعشيرة التي جاء بها الوافدون، وقيم المواطنة والانضباط الحضري والاستقلالية الفردية التي تقوم عليها الحياة المدنية. ونتج عن هذا الصدام تشكل ثقافي "هجين" وغريب، يجمع بين محافظة ريفية شديدة واستهلاك حضري مفرط، مع ارتفاع ملحوظ في معدلات الجريمة والعنف الأسري داخل المجتمعات الريفية المنغرسة في المدينة.

صعود الفلاح إلى القصر

لا يكتمل تشريح ظاهرة الغزو الريفي للمدينة دون التوقف عند أبرز تجلياتها السياسية المباشرة: صعود زعيم قادم من الريف ذاته ليستولي على قلب السلطة في العاصمة. إنه المشهد الاستعماري الأكمل: الفلاح الذي اقتحم القصر، ليس لتحطيمه رمزيا فحسب، بل لشغله وإعادة تشكيل الدولة على صورته. لم يكن صعود جمال عبدالناصر (ابن قرية بني مر في صعيد مصر)، وحافظ الأسد (من قرية القرداحة الريفية في محافظة اللاذقية)، وصدام حسين (المولود في قرية العوجة قرب تكريت)، وعلي عبدالله صالح (من قرية بيت الأحمر في سنحان)، وجعفر النميري (من منطقة واد النيل الريفية)، مجرد صدفة في سجل الحكام، بل كان تعبيرا جيوسياسيا عن تلك الزلزلة الديموغرافية ذاتها. لقد مثل هؤلاء القادة، في أصولهم وذهنيتهم وتكتيكات حكمهم، التجسيد السياسي النهائي للغزو الريفي، وسرعان ما حوّلوا مشروعهم الوطني إلى سيرورة دمار منهجي. جاء هؤلاء الرجال من خارج النخب الحضرية التقليدية –الملاك والأعيان والتجار والعائلات ذات الأصول العثمانية– التي حكمت مدناً مثل القاهرة ودمشق وبغداد بصورة شبه وراثية لفترات طويلة. كانت هويتهم مركّبة: فلاحون أو أبناء عشائر ريفية، لكنهم تلقوا تعليما عسكريا أو حزبيا في المدينة، فأصبحوا جسرا بين عالمين متنافرين. لقد استغلوا السخط الريفي المتراكم كوقود لثوراتهم وانقلاباتهم، وعدوا بـ"إنصاف الريف" و"كسر احتكار النخبة". لكنهم ما إن استقر بهم المقام في قصور الرئاسة، حتى أداروا ظهورهم لوعودهم وكرسوا نظاما جديدا للاستبعاد.

لقد حكموا بـ"عقلية الحصانة المحاصَرة" الريفية، لكن على مستوى الدولة. فكما تحمي العشيرة أبناءها بجدار من الولاء والدم، قاموا بتحويل مؤسسات الدولة إلى غلاف لحماية شبكة مصالح ضيقة مكونة من أبناء قراهم وعشائرهم ومناطقهم. لم يكن الأمر طائفيا بحتا (رغم بروز هذا العامل في سوريا والعراق)، بل كان "جهويًا – عصبونيًا". تحولت القرداحة في سوريا، وتكريت في العراق، وبيت الأحمر في اليمن، وسنار في السودان، من قرى نائية إلى مراكز قوى تتحكم في مفاصل الجيش والأمن والاقتصاد. كان هذا هو "ترييف الدولة" في أبشع صوره: حيث تحولت بيروقراطية حديثة، ولو اسميا، إلى إدارة عشائرية عملاقة، توزع المناصب والثروات كغنيمة حرب، لا كمسؤوليات عامة.

ولم تكن مدنهم، العواصم، سوى ساحة لإظهار القوة واختبار الولاء. فبينما رفعوا شعارات التحديث والعمران، عاملوا المدن التاريخية –بتراثها المعقد ونخبها المستقلة– بمزيج من الريبة والانتقام. كان مشروعهم العمراني يعكس "ذهنية الفلاح المنتقم" الذي يبني صروحاً ضخمة (كالتحرير في القاهرة، وامتدادات دمشق الإسمنتية) ليس لإسعاد أهل المدينة، بل لإخضاعهم وإثبات تفوق الوافد الجديد. لقد دمروا النسيج العضوي للمدينة القديمة، ليس لقصور في التخطيط فقط، بل لأن ذلك النسيج كان يمثل نظام قيم ونمط حياة غريبيْن عنهم ومهدديْن لهم. فالحارات القديمة بتنظيمها الذاتي وتراثها العائلي كانت تشكل دولة داخل الدولة، وهو ما لم يسمحوا به.

الأكثر تدميرا أنهم حوّلوا الاقتصاد الوطني إلى "اقتصاد ريعي عائلي ضخم"، على صورة مزرعة القرية الموسعة. فكما أن الفلاح يرى الأرض مصدر زرع مباشر يجب السيطرة عليه، رأوا موارد الدولة –النفط في العراق وليبيا، والمعونات في مصر، وعائدات قناة السويس، والتحويلات في اليمن– كغنيمة شخصية وعائلية. لم ينظروا إليها كرأسمال لاستثماره وتنويعه، بل كمورد يجب استخراجه وتوزيعه على الموالين لضمان بقائهم. هذا قتل أي أمل في تنمية حقيقية أو في خلق اقتصاد منتج، سواء في الريف الذي تخلوا عنه أو في المدينة التي خنقوها.

لذلك، لم يقد هؤلاء الزعماء بلدانهم إلى "الدّمار" بمحض الصدفة أو سوء الحظ، بل قادوها إليه عبر "مشروع حكم عضوي متشظٍ". كانوا حلقة الوصل بين الغزو الديموغرافي الصامت والانهيار المؤسسي الصاخب. لقد حولوا الدولة من إطار جامع، وإن كان هشاً، إلى آلة ضخمة للاستبعاد والانتقام، حيث استبعدوا النخب الحضرية القديمة، وانتقموا من المدن التي استقبلتهم، وخانوا الريف الذي جاءوا منه بعد أن استغلوا أحلامه. في سعيهم لبناء دولة مركزية قوية، دمروا أسس المجتمع المدني والقدرة على التعايش. وحين انفجرت مدنهم أخيراً في وجوههم –أو في وجه خلفائهم– كان الانفجار يحمل كل طبقات الغضب: غضب الريفي الذي لم ينصف، وغضب الحضري الذي فقد مدينته، وغضب جيل جديد وجد نفسه بلا مستقبل في مدينة محتلة من الداخل، يحكمها غريب قادم من الريف يحمل نفس عقدة الغربة والعداء.

هكذا يصبح صعود الزعيم الريفي ليس سببا منفصلاً، بل هو الذروة المأساوية لسيرورة الغزو. إنه اللحظة التي يتحول فيها السخط الاجتماعي إلى نظام سياسي، والهجرة الجماعية إلى هيمنة مطلقة، والاغتراب الريفي إلى مشروع حكم يقوم على اغتراب الجميع. وهو ما يثبت، بشكل مأساوي، أن تغيير وجوه الحكم دون تغيير البنى الاجتماعية والذهنيات التي تنتجها، هو مجرد استمرار للدمار بصورة أخرى.

مدينة هجينة مشوهة

العواقب السياسية كانت الأكثر خطورة. لقد تحولت الضواحي العشوائية الفقيرة إلى قلاع للحركات السياسية الرافضة، بدءا من الأحزاب الإسلامية التي وجدت فيها تربة خصبة لخطابها القائم على العدالة والهوية، وصولاً إلى الجماعات المتطرفة التي جندت من بين صفوف شبابها المحبط. وفشلت الدولة الوطنية في استيعاب هؤلاء الوافدين كمواطنين كاملي الحقوق، وظلت تتعامل معهم كرعايا، أو ككتلة انتخابية يمكن شراؤها بالدعم، أو حتى كتهديد أمني تجب مراقبته وقمعه. وهذا الفشل في الاندماج السياسي والاجتماعي هو الذي حوّل الفجوة المكانية والطبقية إلى شرخ وجودي، غذّى احتجاجات الربيع العربي ثم حروبها الأهلية اللاحقة. واقتصاديا، لم تنتج عن هذا التحول ثورة صناعية أو إنتاجية، بل تحولت المدينة من مركز إنتاج إلى فضاء استهلاك فقير. فأغلب القادمين الجدد انضموا إلى قطاع الخدمات الهش أو الاقتصاد غير الرسمي، بينما تراجعت الإنتاجية الزراعية في الريف دون تعويضها بإنتاجية حضرية بديلة.

واليوم، يقف المشهد الحضري العربي عند مفترق طرق. فالتشخيص النهائي يؤكد أن "الغزو" لم ينتهِ، لكن المدينة أيضا لم تستسلم تماما. ما حدث ليس مجرد غزو، بل هو أيضا تحرير للمدينة من نخبويتها المغلقة، وإعادة تعريف قسري لماهيتها. المدينة العربية المعاصرة ليست حضرية خالصة ولا ريفية خالصة، بل هي كيان هجين متوتر، يحمل في طياته كل تناقضات المجتمع الأوسع. وتتحمل الدولة الدور الأكبر في هذه المأساة، فهي التي حركت موجات الهجرة بسياساتها الاقتصادية المركزية، ثم وجدت نفسها ضحية لعجزها عن إدارة نتائجها.

إن الخروج من هذا المأزق يتطلب جرأة في إعادة التفكير، وتبني عقد حضري جديد. على مستوى السياسات، لا بد من اللامركزية الحقيقية التي تعيد الحياة والاستثمار إلى الأرياف، وإصلاح أنظمة الملكية الزراعية. وعلى مستوى التخطيط، يجب الاعتراف بالعشوائيات كواقع قائم وبدء عملية إدماجها عبر التطوير التشاركي، مع إحياء التخطيط المحلي وحماية ما تبقى من التراث العمراني. اجتماعيا، تحتاج المدن إلى برامج إدماج ثقافي وبرامج تربوية تعزز قيم المواطنة الحضرية والانتماء المشترك، دون طمس التنوع. والسؤال المطروح هو: هل يمكن بناء "منطقة حضرية إنسانية" في العالم العربي، تعترف بحق الريفي في المدينة دون أن تدمر المدينة، وتوفر العدالة المكانية دون إفقار الروح؟

في النهاية، أصبحت المدينة العربية صورة مشوهة لإخفاقات المشروع الوطني الحديث برمته. فتشوهات عمرانها، وتوترات نسيجها الاجتماعي، وانفجارات غضبها السياسي، ليست سوى تعبيرات مادية عن أزمات أعمق في الشرعية والتوزيع والهوية. وربما يكون مفتاح فهم حاضر السياسة والصراع في المنطقة، هو البدء بقراءة تاريخها الاجتماعي، والتوقف أمام محطات ذلك الزلزال البشري الصامت الذي غير وجه المدن، وغير معه مصير أمم بأكملها.

> العواقب السياسية كانت الأكثر خطورة. لقد تحولت الضواحي العشوائية الفقيرة إلى قلاع للحركات السياسية الرافضة

الخرطوم ملاذ لنازحي حروب الجنوب ودارفور وجنوب كردفان

المشهد الحضري العربي عند مفترق طرق

العرب
السبت 2025/12/13
السنة 48 العدد 13684

تونس تدفع التعاون الاقتصادي مع الجزائر نحو مرحلة جديدة

البلدان يتوجان منتدى للأعمال بإبرام 7 اتفاقيات شراكة في مجالات تشمل الطاقة والصناعة والسياحة

فتحت تونس جبهة جديدة في الشراكة مع الجزائر حيث شكلت الدورة الثالثة والعشرون للجنة العليا المشتركة فرصة لدفع التعاون نحو آفاق أوسع، من بوابة تعزيز فرص الاستثمار وزيادة المبادلات التجارية، في سياق رؤية شاملة لتعميق التكامل الاقتصادي بين البلدين، بما يحقق منافع متبادلة ويدعم النمو والتنمية الإقليمية.

جانب من توقيع إحدى الاتفاقيات في المنتدى

تونس - توج المنتدى الاقتصادي التونسي – الجزائري، الذي عقد الخميس في العاصمة التونسية بمناسبة الدورة الثالث والعشرين للجنة الكبرى المشتركة وبحضور عدد من الوزراء من البلدين، أعماله بإبرام سبع اتفاقيات شراكة ستدعم التعاون في عدة مجالات.

وتعد تونس والجزائر من بين الدول القليلة في منطقة شمال أفريقيا، التي تربطها مشاريع مشتركة، وهما توليان اهتماما كبيرا للمناطق الحدودية، بما في ذلك إنشاء مناطق تجارية حرة على الحدود.

ويبرز المنتدى، الذي يأتي في سياق مليء بالاضطرابات الإقليمية والدولية، فضلا عن التوترات التجارية، كمنصة إستراتيجية لتقوية العلاقات ولتحقيق تقارب اقتصادي أعمق واستثمارات مشتركة تنعكس إيجابًا على التنمية عبر الاستثمار وتوليد الوظائف والتجارة.

سارة الزعفراني

لدينا رؤية مشتركة لدعم التكامل بين القطاعين العام والخاص

سيفي غريب

العلاقات بلغت مستوى تفتح آفاقا أوسع للشراكات الاقتصادية

وتمثل المبادرة مؤشرًا على التزام القيادة في البلدين بتعزيز التكامل الاقتصادي، وتأكيدًا على أن المرحلة المقبلة من العلاقات الثنائية ستشهد المزيد من التنسيق والتعاون في المجالات الاقتصادية المهمة.

وعبّر المشاركون الذين تقدمهم رئيس الحكومة التونسية سارة الزعفراني والوزير الأول الجزائري سيفي غريب عن تفاؤلهم بقدرة هذا المنتدى على تعزيز الشراكات وتوسيع فرص الاستثمار، مما يساهم في دفع النمو الاقتصادي المشترك وتحقيق المصالح لكلا البلدين.

وفي كلمتها الافتتاحية، أشارت الزعفراني إلى أن هذه المبادرة تأتي في إطار رؤية مشتركة بين قيادتي تونس والجزائر لتعزيز التكامل بين القطاعين العام والخاص، ودفع النمو الاقتصادي من خلال الشراكات الاستثمارية المتبادلة.

ونسبت وكالة الأنباء التونسية الرسمية إليها القول إن "العلاقات الأخوية والتاريخ المشترك يمثلان قاعدة متينة لإرساء شراكات جديدة تقوم على المنفعة المتبادلة والمصلحة المشتركة".

وشددت على أن الاقتصاد التونسي يشهد تطورات إيجابية في عدة مجالات، مع ارتفاع وتيرة الاستثمارات الأجنبية المباشرة، ما يعكس جدّية الإصلاحات الهيكلية، والثقة المتنامية التي تحظى بها البلاد لدى الشركاء الإقليميين والدوليين.

وتندرج هذه الديناميكية في إطار رؤية تونس 2035، التي تهدف إلى تحقيق تحول اقتصادي شامل، يعزّز تنافسية الاقتصاد ويستقطب المزيد من الاستثمارات، ويُسهم في توليد فرص العمل وتحقيق التنمية المستدامة.

وتظهر الأرقام نموا في تدفق الاستثمارات في تونس خلال النصف الأول من 2025 بنسبة تفوق 21 في المئة، بمقارنة سنوية، مع تسجيل تقدّم ملحوظ في وتيرة تنفيذ المشاريع الجارية.

وتشمل المشاريع مجالات النقل والطاقات المتجدّدة والبنية التحتيّة للطرقات والصّحة، ممّا يكرّس، وفق الزعفراني، "صورة تونس كوجهة جاذبة للاستثمار ويؤكد صواب الخيارات الوطنية لتحقيق التعافي الاقتصادي والاستقرار المالي".

ولوحظ في السنوات الأخيرة تطور ملحوظ في حجم الاستثمارات البينية، فبحسب التقديرات، تحتضن تونس قرابة 74 مشروعا في مختلف المجالات، بينما يبلغ عدد الاستثمارات التونسية في الجزائر حوالي 42 مشروعا.

وتمثل الجزائر شريكا إستراتيجيا لتونس سواء من حيث احتياجاتها من الطاقة، سواء كانت نفطا أو غازا أو كهرباء أو مشتقات التكرير، أو من حيث التجارة المتنوعة، خاصة في قطاعي الأغذية الزراعية والسلع الاستهلاكية.

وأكد غريب خلال كلمته أن انعقاد المنتدى يشكل فرصة لتقييم التقدم الذي أُحرز في التعاون الاقتصادي بين البلدين منذ الدورة السابقة للجنة العليا المشتركة، والتي انعقدت في الجزائر في يوليو 2023.

وأوضح أن العلاقات الثنائية قد بلغت مستوى من الانسجام والتوافق السياسي، الذي يمكّن من الارتقاء بالشراكة الاقتصادية إلى آفاق أوسع.

كما أشاد بالديناميكية التي يعرفها التعاون الاقتصادي بين تونس والجزائر، مشيرًا إلى الزيادة الملحوظة في حجم المبادلات التجارية الثنائية، التي تجاوزت 2.3 مليار دولار خلال سنة 2024، بنمو يقارب 12 في المئة مقارنة بالسنة السابقة.

وتبدو المبادلات التجارية في ارتفاع مطرد، فقد حققت 1.6 مليار دولار في 2019، لكنها تراجعت خلال عامي 2020 و2021 بسبب جائحة كورونا، وفي عام 2022 نمت إلى 1.9 مليار دولار لتبلغ في العام قبل الماضي 2.2 مليار دولار.

وقال غريب "نتطلع إلى فتح فصل جديد في الشراكة بتوسيع مجالات التعاون وإيجاد حلول أخرى لضمان انسيابية أكبر للسلع، وتعزيز التكامل، فضلًا عن تشجيع المشاريع المشتركة التي تساهم في بناء بنى تحتية مترابطة وتطوير سلاسل القيمة المشتركة".

ولكنه شدد في سياق كلمته أمام المنتدى على أن هذا المسار يتطلب مبادرات حكومية ومشاركة فعّالة من مجتمع الأعمال في كلا البلدين، لتحويل التحديات الاقتصادية إلى فرص حقيقية للنمو والابتكار.

واشتمل المنتدى على مشاركة فعّالة من القطاع الخاص، ممثلة في الاتحاد التونسي للصناعة والتجارة، بقيادة سمير ماجول، ومجلس التجديد الاقتصادي الجزائري، ممثلًا في كمال مولى، حيث ناقشوا فرص الشراكة في قطاعات الصناعة والطاقة والسياحة.

واعتبر وزير التجارة التونسي سمير عبيد أن المباحثات التي تمت خلال فعاليات المنتدى أبرزت بداية مرحلة جديدة في مسار الشراكة الاقتصادية والتجارية بين الجارين.

> **2.3**
> **مليار دولار حجم المبادلات التجارية في عام 2024، بنمو قدره 12 في المئة على أساس سنوي**

وأكد أن النقاشات أفضت إلى فتح مرحلة تشابك أعمق بين قطاعي الأعمال التونسي والجزائري، ومبادرات استثمارية حقيقية في قطاعات إستراتيجية واعدة من ناحية أخرى.

ومع ذلك شدد عبيد على ضرورة إحداث نقلة نوعية ثنائية، تونسية – جزائرية، نحو الأسواق الأفريقية الواسعة التي تمثل فرصة حقيقية لنمو اقتصادي البلدين.

ومع أن الاتفاقيات التي تمت بين الجزائر وتونس على مدار السنوات الأخيرة ساهمت بعض الشيء في تحقيق نقلة منتظرة في مستوى العلاقات، لكن يبقى مجال الطاقة أحد أسس التعاون.

وتشير أوساط اقتصادية محلية ومتابعون إلى أنه رغم بروز جوانب اقتصادية متنوعة شجعت على إقامة علاقات جيدة بين الطرفين، لكن ثمة استفادة أحادية الجانب على أساس أن تونس لها عجز في الطاقة وخاصة من الغاز الذي تحتاجه من الجزائر.

وتواجه تونس عددا من التحديات تتعلق أساسا بتنويع المنتجات التجارية والتكامل الاقتصادي لمنطقة شمال أفريقيا، إذ لا تتجاوز حصة التجارة البينية 5 في المئة مقابل 18 في المئة في منطقة جنوب الصحراء الكبرى.

مبيعات السيارات الكهربائية تنمو بأبطأ وتيرة منذ قرابة عامين

لندن - أظهرت بيانات حديثة نشرت الجمعة أن مبيعات السيارات الكهربائية عالميا نمت في نوفمبر بأبطأ وتيرة منذ فبراير 2024، وسط استقرار مبيعات السيارات الكهربائية في الصين.

ويتزامن ذلك مع تعليق برنامج أميركي لتوفير حوافز ائتمانية لشراء السيارات الكهربائية، ما جعل أميركا الشمالية تتجه لأول انخفاض سنوي في التسجيلات منذ 2019.

وذكرت شركة الاستشارات بنشمارك مينيرال إنتلجنس أنه في أوروبا حافظت تسجيلات السيارات الكهربائية، بما في ذلك الهجينة القابلة للشحن، على نمو قوي بفضل برامج الحوافز لكل بلد، وارتفعت بمقدار الثلث حتى الآن هذا العام مقارنة بالفترة نفسها من عام 2024.

وتقول الجهات المعنية بالنقل الكهربائي إن التحول السريع إلى السيارات الكهربائية ضروري للحد من انبعاثات ثاني أكسيد الكربون المسببة للاحتباس الحراري في كوكب الأرض.

ولكن شركات تصنيع السيارات والحكومات تراجعت عن بعض الالتزامات الخضراء بسبب تباطؤ تبني السيارات الكهربائية عما كان متوقعا، وهو أمر تقول جماعات الضغط في مجال السيارات إنه يهدد الوظائف وهوامش الربح.

وتشير الإحصائيات إلى أن تسجيلات السيارات الكهربائية على مستوى العالم، وهي مؤشر على المبيعات، ارتفعت بستة في المئة إلى أقل بقليل من مليوني وحدة في نوفمبر.

وارتفعت المبيعات بواقع ثلاثة في المئة في الصين إلى أكثر من 1.3 مليون وحدة، مسجلة أدنى زيادة على أساس سنوي منذ فبراير من العام الماضي.

> **6**
> **في المئة نسبة نمو التسجيلات على مستوى العالم لترتفع إلى أقل بقليل من مليوني وحدة في نوفمبر**

وانخفضت تسجيلات أميركا الشمالية 42 في المئة إلى ما يزيد قليلا عن مئة ألف سيارة مباعة بعد انخفاض مماثل في أكتوبر مع انتهاء برنامج الحوافز في الولايات المتحدة، وانخفضت بواحد في المئة منذ بداية العام حتى الآن.

وارتفعت التسجيلات في أوروبا بنسبة 36 في المئة إلى أكثر من 400 ألف تسجيل، وبقية دول العالم بحوالي 35 في المئة أي بواقع 160 ألف تسجيل.

وفي خطوة تقوض التحول إلى السيارات الكهربائية، اقترح الرئيس الأميركي دونالد ترامب الأسبوع الماضي خفض معايير تتعلق بالاقتصاد في استهلاك الوقود وضعها سلفه.

وفي الصين، أكبر سوق للسيارات في العالم وتمثل أكثر من نصف المبيعات العالمية للسيارات الكهربائية، من المتوقع أن يؤدي خفض الدعم الحكومي قرب نهاية السنة إلى التأثير على معنويات المستهلكين بشكل عام.

لا زبائن جددا في السوق

أوكيو العمانية تبحث عن شريك جديد لمشروع الدقم للبتروكيماويات

الدقم (سلطنة عمان) - تسعى مجموعة أوكيو العُمانية إلى إعادة إحياء واحد من أكبر مشاريعها الإستراتيجية في قطاع الطاقة من خلال البحث عن شريك جديد لمشروع الدقم للبتروكيماويات، بعد أن توقف تنفيذ المشروع خلال السنوات الماضية لأسباب مالية وتقنية.

ويأتي هذا التوجّه في إطار رؤية الشركة لتعزيز حضور سلطنة عُمان في صناعة البتروكيماويات، وإعادة دفع عجلة الاستثمار في المنطقة الاقتصادية الخاصة بالدقم، التي تُعد أحد أبرز مراكز النمو الصناعي في البلاد.

وتطمح أوكيو عبر الخطوة إلى إيجاد شراكة قادرة على توفير التمويل والخبرة التقنية اللازمة لإطلاق المشروع بحجم يتماشى مع طموحات السلطنة في تطوير قطاع الطاقة والتحوّل نحو صناعات ذات قيمة مضافة أعلى، وسط منافسة إقليمية متنامية وفرص استثمارية واعدة.

وقال أشرف المعمري الرئيس التنفيذي للمجموعة الحكومية إن "أوكيو تجري محادثات مع شركاء محتملين جدد لمجمع البتروكيماويات المزمع إنشاؤه في الدقم بعد انسحاب شركة سابك السعودية".

وذكر المعمري في مقابلة مع رويترز نشرت الجمعة، أن شركة سابك السعودية قررت "الانسحاب من المشروع، لذا لم يبق الآن سوى نحن والجانب الكويتي"، دون أن يذكر تفاصيل عن سبب القرار أو تكلفة المشروع.

ولم يتسن الحصول على تعليق حتى الآن من شركة سابك التي لم يسبق أن جرى الإعلان عن انسحابها من المشروع في منطقة الدقم الاقتصادية بسلطنة عمان.

وكان يفترض البدء في المشروع منذ فترة وتحديدا مع بدء التشغيل الرسمي لمصفاة الدقم أو خلال عام 2025 ولكن ظروف جائحة كورونا عرقلت تنفيذ إجراءات دراسات الجدوى التي تم الانتهاء منها فعليا في مطلع العام الماضي.

أشرف المعمري

شركة سابك انسحبت، لذا لم يبق سوى نحن والجانب الكويتي

وفي أبريل الماضي تم عرض الدراسة على مجلس إدارة مؤسسة البترول الكويتية، شريكة أوكيو في هذا المشروع الضخم، التي أكدت أهمية المضي في تنفيذه لعوائده الكبيرة المتوقعة.

وتعد المنطقة التي تبعد حوالي 550 كيلومترا عن العاصمة مسقط أكبر مشروع اقتصادي منفرد في البلد الخليجي، وهي تأتي في إطار جهود البلاد لتنويع موارد اقتصادها وتقليص اعتماده على إيرادات النفط.

وتتضمن المنطقة ميناء الدقم على الساحل الجنوبي الغربي للسلطنة بالقرب من مشاريع كبرى للغاز والنفط، حيث افتتحت أوكيو وشركة البترول الكويتية العالمية العام الماضي مصفاة ضخمة، مع وجود خطط لمشروع بتروكيماويات في المنطقة.

وجسدت الحكومة رؤيتها الطموحة بشأن مستقبل قطاع التكرير من خلال التدشين الرسمي لمصفاة الدقم في شهر فبراير 2024 بعد تأخير دام أربع سنوات، لتعزز بذلك تواجدها ضمن أبرز اللاعبين في هذه الصناعة بمنطقة الخليج العربي.

وأعطى سلطان عُمان هيثم بن طارق إشارة انطلاق نشاط المصفاة التي تم تشييدها على مساحة 900 هكتار بحضور أمير دولة الكويت الشيخ مشعل الأحمد الجابر الصباح.

وتعد المصفاة، التي كلف تشييدها 8 مليارات دولار، وفق البيانات الرسمية بعدما كان في البداية 7 مليارات دولار، جزءا من منطقة صناعية بدأت مسقط ببنائها وتضم مشاريع في قطاع الطاقة وأخرى صناعية ولوجستية لأغراض التعبئة والتوزيع والتسويق.

وقال المعمري "حاليا، مشروع البتروكيماويات قائم على أساس شراكة بنسبة 50 – 50 في المئة، وفي الوقت نفسه نجري مناقشات مع بعض الشركاء لمعرفة ما إذا كانوا مهتمين بالانضمام كشريك ثالث"، دون أن يذكر أسماء.

وأضاف "نجري مناقشات مع مزودي حلول التكنولوجيا وشركاء آخرين، وحتى شركاء ماليين. أما في ما يتعلق بنسبة الأسهم وتوزيعها، فلم نحسم الأمر بعد، وسيعتمد ذلك على مدى تقدم المشروع".

كيف تحولت ماكينة الإخوان الإعلامية من إمبراطورية فضائية إلى جيش إلكتروني مشتت

هانوي محطة طارئة في رحلة تشتت إعلامي إخواني مستمر حاول توظيف حرب فيتنام في دعاية فاشلة

التشتت عنوان المرحلة

لم يكن اختيار هانوي لإطلاق قناة "الحرية 11/11" سوى محاولة يائسة من جماعة الإخوان للهروب من حصار إعلامي، لكنها سرعان ما فشلت، لتؤكد أن عصر القنوات الفضائية الإخوانية قد انتهى، وأن الجماعة مضطرة اليوم إلى توظيف المنصات الرقمية لنشر أيديولوجيتها.

هانوي - مثّل انطلاق قناة "الحرية 11/11" الإخوانية من العاصمة الفيتنامية هانوي اختيارًا غير تقليدي على الإطلاق، ومفاجئًا حتى للمتابعين المقربين من جماعة الإخوان، إذ لم تكن فيتنام يومًا ضمن الخارطة الإعلامية أو السياسية للتنظيم. لكن حتى هذا الاختيار واجه عقبات فورية، حيث توقف بثها على قمر يوتلسات الفرنسي مرارا بسبب "محتواها التحريضي"، ما أبرز صعوبة الاعتماد على الأقمار الصناعية الأوروبية التي أصبحت أكثر صرامة تحت ضغوط دولية.

ونجحت وزارة الخارجية المصرية، خلال اتصالاتها الدولية منذ عام 2015، في إقناع شركات الأقمار الأوروبية مثل يوتلسات بوقف البث التحريضي.

وبرزت هانوي كنقطة غير متوقعة في الإعلام الإخواني، لأن فيتنام دولة شيوعية بعيدة جغرافيًا وسياسيًا عن الصراع العربي، لا تربطها علاقات دبلوماسية عميقة مع القاهرة، ولا تملك قوانين صارمة ضد "الإعلام السياسي الأجنبي" طالما أنه لا يمس الأمن القومي الفيتنامي مباشرة. لكن مراقبين يقولون إن "هذا الإطلاق الفيتنامي قمة في تشتت الإعلام الإخواني".

وحاول الإعلام الإخواني توظيف نموذج حرب فيتنام رمزياً في خطابه السياسي، فقارن بين ما يسميه "صمود الشعب الفيتنامي أمام الاحتلال الأميركي" وبين قضايا مثل المقاومة في غزة أو ما يصفه بالثورة ضد "الانقلاب" في مصر. ويتم تداول هذه المقارنات بكثافة على منصات التواصل الاجتماعي التابعة للتنظيم، رغم أنها تتجاهل تعقيدات الصراع الفيتنامي ودور القوى الشيوعية الكبرى فيه، لأن الهدف الأساسي هو تعبئة عاطفية وليس تقديم تحليل تاريخي دقيق.

وسبق أن أكد طاهر الشرقاوي، أحد القائمين على القناة، في تسجيل صوتي مسرب أن "اختيار فيتنام جاء بعد دراسة معمقة لكل الدول التي يمكن أن تكون ملاذًا آمنًا، ووجدنا أن هانوي هي الأقل تعرضًا للضغوط العربية والغربية معًا، ولا تخضع لاتفاقيات تسليم أو مراقبة مشتركة مع مصر". وأضاف الشرقاوي في بيان لاحق أن "القناة ستبث من عاصمة آسيوية لأول مرة في تاريخ الإعلام الإخواني، لأن الجماعة أصبحت مضطرة للخروج من الإطار الجغرافي العربي والإسلامي التقليدي كي تحافظ على صوتها حيًا".

وأشار خالد السرتي، الوجه الإعلامي البارز في القناة، في لقاء على إحدى المنصات الرقمية إلى أن "الأستوديو الرئيسي في هانوي يضم تقنيين آسيويين ومهندسين من جنسيات متعددة، بحيث لا يمكن لأحد أن يربط القناة جغرافيًا بتنظيم بعينه أو دولة بعينها".

وقبل ذلك بسنوات كانت تركيا الملاذ الأكبر، حيث ازدهرت في إسطنبول قنوات "مكملين" و"الشرق" و"وطن" و"رابعة"، وكانت تبث على مدار الساعة بتمويل قطري واضح ودعم لوجستي تركي. لكن مع بداية التقارب التركي – المصري في 2021، بدأت الأبواب تغلق تدريجيًا، فأُوقفت البرامج السياسية الحادة، ثم أُغلقت الأستوديوهات نهائيًا بحلول 2023، واضطر المذيعون إلى مغادرة البلاد أو الصمت. حتى قطر، الداعم الأول تاريخيًا، خفضت السقف وأوقفت قنوات فرعية مثل "مباشر مصر".

> مواقع التواصل الإجتماعي أصبحت سلاح جماعة الإخوان لنشر الفوضى الفكرية وترويج أفكارهم المتطرفة

وبحلول 2023 – 2025 تصاعدت الضغوط المصرية، وهو ما دفع تركيا إلى اتخاذ إجراءات أكثر حدة؛ ففي نوفمبر 2025، أغلقت السلطات قناة "بلقيس" التابعة للناشطة الإخوانية توكل كرمان، بعد إدراج الجماعة على لائحة "التنظيمات الإرهابية"، مع تأكيد أن الإغلاق جاء "لظروف قاهرة" لكن بأمر رسمي.

وفي الولايات المتحدة حاولت الجماعة إطلاق منصات عبر الأقمار الأميركية، لكن الضغط القانوني والرقابي من الكونغرس، خاصة بعد تصنيف فروع الإخوان منظمات إرهابية في بعض الولايات عام 2025، جعل أي بث فضائي مستحيلاً تقريبًا. حتى الأقمار الأوروبية، التي كانت ملجأً في السابق، أصبحت أكثر حذرًا، فشركتا يوتلسات وهوت بيرد توقفان البث فور تلقي شكاوى رسمية.

ويقول مراقبون "ما تبقى اليوم هو شبكة متشظية تمامًا: قنوات وهمية تظهر لأيام ثم تختفي، ترددات تُستأجر لساعات قليلة على أقمار ثانوية، أستوديوهات متنقلة في مدن لا يعرف أحد مكانها بدقة، ومذيعون يستخدمون أسماء مستعارة وخلفيات افتراضية. هذا التشتت لم يقتصر على الجانب التقني فقط، بل امتد إلى المحتوى نفسه، فلم تعد هناك رسالة موحدة، بل خطابات متضاربة بين جبهة لندن وجبهة إسطنبول السابقة وتيارات جديدة في الخارج".

ولم يبق أمام الإخوان سوى التركيز على المنصات الرقمية مثل يوتيوب وتلغرام لتجنب الحظر الفضائي، وسط ضغوط دولية متزايدة مثل أمر الرئيس الأميركي ترامب في نوفمبر 2025 بتصنيف فروع إخوانية منظمات إرهابية.

وراهنت الجماعة على بناء "جماعة افتراضية" عبر الإنترنت، حيث أنشأت شبكات من الحسابات الوهمية والمجموعات المغلقة على واتساب وكلوب هاوس لنشر الشائعات واستهداف الشباب.

وفي عام 2025 أكد الخبير في شؤون الجماعات الإرهابية إسلام الكتاتني أن "الإعلام الاجتماعي أصبح منصة الإخوان لنشر الفوضى الفكرية وترويج أفكارهم المتطرفة"، مع الاعتماد على كتائب يوتيوب لإعادة صياغة الأحداث التاريخية.

وقال الكتاتني إن "جماعة الإخوان الإرهابية تتعامل مع مواقع التواصل الاجتماعي باعتبارها ساحات مفتوحة لنشر الفوضى الفكرية وترويج أفكارها المتطرفة"، موضحًا أن "الجماعة تعتبر 'السوشيال ميديا' بديلاً عن منابرها التقليدية التي خسرتها بعد سقوطها في عدد من الدول العربية".

وأشار الكتاتني إلى أن جماعة الإخوان تستخدم محتوى متنوعًا يجمع بين الأخبار المفبركة والمقاطع المصورة والحملات العاطفية لاستهداف عقول الشباب، معتمدة على التضليل البصري والمعلوماتي لخلق حالة ارتباك وفقدان ثقة بالمؤسسات الوطنية.

وأضاف أنها "تستعين بصفحات وشخصيات عامة محسوبة عليها للترويج لأجندتها، بحيث تبدو الرسائل كأنها 'مستقلة' لكنها في الحقيقة جزء من ماكينة دعائية ضخمة تدار من الخارج."

وأشار إلى أن هذه الحملات باتت أكثر خطورة مع استخدام تقنيات التزييف الرقمي، مثل تركيب الفيديوهات والصور المعدلة، بما يمنح الشائعة مظهرًا زائفًا من المصداقية.

وشدد على أن سرعة كشف هذه الأكاذيب من قبل المؤسسات الرسمية والإعلام الوطني ساهمت في الحد من تأثيرها، مؤكدا أن المشروعات القومية العملاقة في مجالات النقل والطاقة والمدن الجديدة، إلى جانب الإصلاحات الاقتصادية، تشكل الرد الأقوى على هذه الحملات المضللة، ودعا المواطنين إلى تحري الدقة قبل تداول أي معلومة مجهولة المصدر.

الحكومة المصرية ترفع غرامات نشر الأخبار الكاذبة لتحقيق ردع أكبر

القاهرة - وافق مجلس الوزراء المصري في جلسته الأسبوعية الأربعاء على إعداد مشروع قانون جديد يعدّل بعض مواد قانون العقوبات، بهدف تشديد الغرامات المالية المفروضة على جرائم نشر الشائعات والأخبار الكاذبة بشكل كبير.

ورأى المجلس أن العقوبات الحالية، التي تتراوح غراماتها في أغلب الحالات بين 100 جنيه و20 ألف جنيه فقط، لم تعد كافية لتحقيق الردع المطلوب في عصر التواصل الاجتماعي الذي تتضاعف فيه سرعة انتشار المعلومات المغلوطة خلال دقائق. وأكد بيان مجلس الوزراء أن التعديل يهدف إلى وضع إطار تشريعي أكثر صرامة يحمي استقرار الدولة وأمنها القومي ويحافظ على صورتها أمام الرأي العام الداخلي والخارجي، خاصة في ظل ما وصفه بـ"الحرب المعلوماتية" التي تتعرض لها مصر بين الحين والآخر.

وسيطال التعديل المرتقب عدة مواد رئيسية في قانون العقوبات، إلى جانب بعض نصوص قانون مكافحة جرائم تقنية المعلومات، بحيث ترتفع الغرامات إلى مئات الآلاف من الجنيهات في الحالات الجسيمة، وفق ما أشارت إليه مصادر حكومية مطلعة.

ومن المنتظر أن يحال مشروع القانون إلى مجلس النواب خلال الأيام القليلة المقبلة لمناقشته وإقراره، تمهيدا لصدوره قبل نهاية دور الانعقاد الحالي.

ويأتي التركيز الرئيسي على رفع مستوى العقوبات المالية لتحقيق ردع أكبر في ظل التطور الرقمي الذي يسمح بانتشار المعلومات المغلوطة بسرعة فائقة. ومع أن التفاصيل الدقيقة للغرامات الجديدة لم يتم الإفصاح عنها بشكل رسمي حتى الآن، إذ لا يزال المشروع قيد الإعداد، تشير المناقشات الحكومية إلى زيادة ملحوظة قد تصل إلى مئات الآلاف من الجنيهات في الحالات الجسيمة، مقارنة بالعقوبات الحالية التي تعتبر غير كافية لمواجهة الظاهرة.

ويعتبر مقترح القانون رد فعل على تقييم الحكومة بأن الغرامات المنصوص عليها في القوانين القائمة، مثل تلك الواردة في المواد 80 و102 مكرر و171 و188 من قانون العقوبات، بالإضافة إلى المادة 29 من قانون مكافحة جرائم تقنية المعلومات رقم 175 لسنة 2018، أصبحت غير متناسبة مع حجم الضرر الذي يلحقه نشر الأخبار الكاذبة بالأمن القومي والاقتصاد.

> خبراء يؤكدون أن السبب الرئيسي في انتشار الشائعات مرتبط بعدم توافر المعلومات والبيانات الكافية للمواطنين

وفي النظام الحالي تتراوح الغرامات بين حد أدنى يصل إلى 100 جنيه مصري في بعض الحالات البسيطة، مثل نشر إشاعات تؤثر على الثقة المالية بالدولة وفقاً للمادة 80/د، وحد أقصى يصل إلى 20 ألف جنيه في حالات الإضرار بالمصلحة العامة عبر الإنترنت، كما هو منصوص عليه في قانون الجرائم الإلكترونية.

ويُعتقد أن هذه المستويات المنخفضة نسبياً لم تعد تشكل رادعا فعالاً، خاصة مع انتشار الشائعات عبر وسائل التواصل الاجتماعي التي تصل إلى ملايين المستخدمين في دقائق معدودة.

فعالية جزئية

ومن المتوقع أن يركز المشروع المقترح على زيادة الغرامات بشكل تصاعدي بناءً على خطورة الجريمة وتأثيرها، حيث قد ترتفع الغرامات في الحالات العادية إلى ما بين 50 و100 ألف جنيه للنشر البسيط الذي يثير الرعب أو يضر بالاقتصاد، بينما قد تصل في الحالات المتعمدة أو المتكررة إلى 300 ألف جنيه أو أكثر إذا كانت الشائعات تتعلق بأمور أمنية حساسة أو تستهدف إضعاف هيبة الدولة.

وأكد رئيس الوزراء مصطفى مدبولي أن "هذا النهج يهدف إلى تحقيق توازن بين الحفاظ على حرية الرأي، وبين مواجهة الحرب المعلوماتية" التي تُستخدم للإضرار بالاستقرار الاجتماعي والاقتصادي، مع الإشارة إلى أن النقد المبني على الحقائق لن يتأثر بهذه التعديلات.

وفي الوقت نفسه يُناقش المجلس إصدار قانون منفصل لتنظيم تداول المعلومات، من أجل تعزيز الشفافية وتقليل الفراغ الذي تملأه الشائعات.

وسيُحال مشروع القانون إلى البرلمان قريباً للمناقشة والإقرار، وسط جدل عام يدور حول ضرورة إتاحة المعلومات الرسمية بشكل أوسع لتجنب انتشار الأخبار الكاذبة، كما يؤكد خبراء في العلوم السياسية مثل مصطفى كامل السيد من جامعة القاهرة.

صحيفة الثورة تعتذر عن كاريكاتير في أول اختبار للصحافة السورية بعد التحرير

دمشق - اعتذرت صحيفة "الثورة السورية" الرسمية، التي أعيد إطلاقها الورقي في 1 ديسمبر 2025 كأول جريدة حكومية بعد التحرير، عن نشر كاريكاتير في عددها الأخير، أثار جدلا واسعا.

وصور الرسم الكاريكاتيري، الذي نشر في صفحة الرأي، مجموعة من "الجرذان" تهرب من فتحة في تمثال يرمز إلى الرئيس الأسبق حافظ الأسد، مع تعليق يصف المطالبين بـ"دولة مدنية و"شفافية" في إدارة الدولة الجديدة بأنهم "جرذان" تسعى للإضرار بالاستقرار، في إشارة ساخرة إلى المنتقدين للسلطات الحالية.

الكاريكاتير، الذي رسمه كاريكاتيريست محلي لم يعلن عن اسمه، أثار موجة من الغضب السريع على وسائل التواصل الاجتماعي، حيث اعتبره آلاف السوريين إهانة مباشرة لمطالب الثورة الأساسية التي أطاحت بنظام بشار الأسد، مثل بناء دولة مدنية علمانية وتعزيز الشفافية في الإدارة الحكومية والتعامل مع الملفات الأمنية والاقتصادية.

وفي غضون ساعات قليلة انتشرت صور الرسم مع هاشتاغات مثل "#كاريكاتير_الجرذان و"#الثورة_تخون_الشفافية، وهو ما دفع الرأي العام إلى اتهام الصحيفة بـ"استعادة إرث الدعاية البعثية" رغم هويتها الجديدة المعلنة تحت شعار "فاصلة الحق رافعة العمران". وقال معلق:

@DeirEzzore

في موقف شجاع أعتذر السيد «نور الدين الإسماعيل»رئيس تحرير صحيفة الثورة السورية عن نشر رسم كاريكاتير سبب بعض اللغط. حيث فُهم من الرسم «أن كل من يطالب بالشفافية هو من فلول النظام»، الاسماعيل أعتذر عبر حسابه في منصة Facebook وحمل نفسه المسؤولية عن الخطأ.

وورداً على الضجة، أصدر رئيس تحرير الصحيفة، نور الدين الإسماعيل، اعتذاراً رسمياً عبر صفحة الصحيفة على فيسبوك، جاء فيه:

نور الدين الإسماعيل

نشرنا اليوم في صحيفة «الثورة السورية» رسم كاريكاتير لم يكن موفقا في إيصال الفكرة، والتي فُهمت في غير سياقها وبشكل مغلوط.

وبصفتي رئيس تحرير الصحيفة، فأنا المسؤول عن نشر رسم الكاريكاتير، وعليه فأنا أعتذر للسوريين عن أي خطأ غير مقصود.

ودمتم بكل الود

يأتي هذا الحادث في سياق حساس للإعلام السوري بعد الإطاحة بالنظام السابق، حيث أعيد إطلاق «الثورة» كرمز للصحافة الحرة، لكنها تواجه تحديات في التوفيق بين دورها الرسمي كمنبر حكومي وتوقعات الجمهور باستقلالية تامة.

وأشاد معلقون بسرعة رد الفعل، معتبرين أن «الاعتذار يعكس نضجاً إعلامياً يختلف عن العصور السابقة». وكتب ناشط:

@RamiZeineddin

صحيفة «الثورة» السورية الرسمية الممولة من (مال الشعب) تعتبر أن كل من يطالب بالدولة المدنية والشفافية هو «جرذ» بحسب كاريكاتير نشرته الصحيفة في عددها الصادر اليوم.

هذه الإساءة المهينة لكل المطالبين بدولة مدنية عادلة تأتي خدمة للسلطة الانتقالية التي تُشكل «هيئة تحرير الشام» التنظيم الإسلامي السلفي عمودها الفقري، مع العلم أيضاً أن أصحاب المناصب السيادية في السلطة لا يلفظون كلمة ديمقراطية لأنها «لا تجوز شرعاً»!

إعلام سوري في سياق حساس

العرب
السبت 2025/12/13
السنة 48 العدد 13684

مقابلات في كرة القدم أم معارك بين الشعوب

كرة قدم أم صراع ديكة؟

مختار الدبابي
كاتب وصحافي تونسي

خلال سنتين اصطف الإعلام التونسي، التقليدي والجديد، وراء قطاع غزة، وكان يمدح المقاومة صباح مساء مع معرفة الفاعلين فيه أن المقاومة هنا هي حركة حماس، ذات الخلفية الإخوانية. والمفارقة هي حصول إجماع على الإشادة بحماس والمقاومة من إسلاميين وقوميين ويساريين تحت يافطة أن فلسطين فوق الخلافات، وهذه خاصية تونسية تعطي الأولوية للقضية الفلسطينية على أي ملف سواها.

لكن مقابلة كرة القدم في كأس العرب بقطر غيرت مزاج شق كبير من التونسيين، على الأقل بعض أولئك الذين يشتغلون بالإعلام التقليدي وخاصة مواقع التواصل الاجتماعي ممن يوصفون بالمؤثرين، فانقلبوا ضد "القضية" وانتقدوا "سذاجة" التونسيين الذين كانوا ينصرون الفلسطينيين ظالمين أو مظلومين. هناك اتهامات للمنتخب الفلسطيني بأنه "تآمر" على تونس في مقابلة مع سوريا قبل أيام، كانت انتهت بتعادل سلبي بين الفريقين، وكان واضحا أن كليهما لا رغبة له في التسجيل لأن التعادل يخدمهما معا.

تبخيس ما يقول التونسيون إنه أشكال نضالية فعالة ضرب في العمق التضامن الرمزي مع القضية الفلسطينية وهز هزا عنيفا فكرة البعد القومي وأن القضية قضية الجميع

الهجوم العنيف في مواقع التواصل التونسية على منتخب فلسطين ليس له ما يبرره رياضيا لأنه في حال فاز الفلسطينيون فإن منتخب سوريا كان سيمر آليا للدور الثاني بعدما ربح تونس في مقابلة الافتتاح. لو كان الهجوم الإعلامي على المنتخب السوري كان يمكن البحث عن مبرر لأن فوز سوريا كان سيتيح لتونس المرور للدور الثاني بعد أن ربحت منتخب قطر بثلاثة أهداف لصفر.

يمكن فهم الحملة على المنتخب الفلسطيني على أنها مجرد تنفيس رياضي ومحاولة لتخفيف صدمة الانسحاب من الدور الأول على منتخب بلغ المباراة النهائية في المسابقة الماضية التي كانت احتضنتها قطر كذلك، ولم يتجهز للدورة الحالية كما يجب، وذهب دون تحضيرات خاصة.

لكن المفارقة هو اعتماد أسلوب المن والتذكير بـ"الأفضال" التونسية في نقد فرح اللاعبين الفلسطينيين بعد التعادل مع تونس في المباراة الثانية وحالة الود الكبيرة مع السوريين في اللقاء الأخير. وتم توظيف الموقف السياسي الرسمي والشعبي من القضية الفلسطينية وخاصة من دعم المقاومة/حماس في الحرب الأخيرة للإيحاء بأن جهود تونس لم تقابل باحترام فلسطيني وأن الفلسطينيين قابلوا ذلك بـ"التآمر".

ولا يعرف إلى الآن إن كان هذا التداعي تلقائيا أم موجها في بلد كان دائما في صف الفلسطينيين، لكنه يشي بأن ما جاء من دعم لدى مؤثرين لغزة كان مجاراة للموجة أكثر منه موقفا مبدئيا، وهو ما يفسر الهجوم الإعلامي على لاعب تونسي رفض الاحتفال بعد أن سجل هدفا ضد منتخب فلسطين واتهامه بـ"الساذج" و"الغبي"، خاصة أن الفلسطيني الذي سجل من بعد الهدف ضد تونس احتفل بشكل مبالغ فيه، كما يقول منتقدو اللاعب التونسي.

وأخذ النقاش بعدا مغاليا حين الحديث عن الوطنية التونسية و"تونس أولا" على خطى شعار الرئيس الأميركي دونالد ترامب "أميركا أولا". لكن المشكلة أن "تونس أولا" لا يمكن تنزيلها في موضوع مثل هذا، فليس لدينا لاجئون فلسطينيون يعاملون بحظوة أكبر لنطالب بتغيير المعادلة، كما أن تونس لا توجه مساعدات ثابتة للسلطة الفلسطينية أو لغزة حتى يطالب الناس بتحويلها لصالح التونسيين بدل إنفاقها على من لا يراعي الود.

من الواضح أن "تونس أولا" المقصود بها الولاء والعواطف، بقلب المعادلة وجعل البعد القطري المحلي أهم من البعد الأشمل، أي القضية الفلسطينية، التي يعتبرها الشارع التونسي قضيته الأولى. لكن هل يمكن لـ"صدمة" كروية محدودة أن تقلب مشاعر التونسيين جذريا فتحط من المركزي وتعظم المحيط أو الهامش شعوريا، والإجابة هنا تفترض احتمالين؛ إما أن المعادلة من البداية كانت خاطئة وغير واقعية، وأنها مجرد بالون مزايدة، أو تعلق مرتبط بالترف الفكري والنفسي، وحين يصطدم بالواقع يسقط بسرعة ويسر.

كشفت ردة الفعل السريعة أن جمهور مدينة فيسبوك الفاضلة التونسية يتعامل مع القضية الفلسطينية كما يتعامل مع فرق الكرة المحلية مثل الترجي أو الأفريقي أو النجم الساحلي أو الصفاقسي حين يغضب من اللاعبين يسبهم ويرميهم بالقوارير. ليس تشكيكا في العمق العربي والإسلامي للقضية الفلسطينية، ولكن وضع الإصبع على حقيقة أن البعد القطري المحلي له "السيادة أولا" على طريق ترامب، وهذا بدا أكثر وضوحا بعد أن انخرط مؤثرون فلسطينيون بدورهم في صراع الديكة والترذيل المتبادل الذي يمحو المشترك بجرة قلم ويظهر حجم الثقوب التي تعتري الذاكرة الجماعية/ القومية والإسلامية.

قابل المؤثرون الفلسطينيون المن التونسي بالاستهزاء من الدعم لقضيتهم بما في ذلك مقاطعة منتجات شركات دولية عابرة للحدود تتهم بأنها دعمت إسرائيل خلال الحرب. ضرب التبخيس، لما يقول التونسيون إنه أشكال نضالية فعالة، في العمق التضامن الرمزي مع القضية الفلسطينية وهز هزا عنيفا فكرة البعد القومي وأن القضية قضية الجميع. الفلسطينيون الذين انزلقوا إلى هذا النقاش، كأنما قالوا للتونسيين، والجمهور المغاربي الداعم لقضيتهم، لا نحتاجكم، ولا نحتاج مظلة القومية التي "تذلوننا" بها.

تابعنا أيضا جدلا بين مؤثرين مصريين وأردنيين بعد اللقاء/الصدمة الذي ربح فيه النشامى منتخب الفراعنة ثلاثة لصفر. بعض المصريين لم يخف حسرته من خلال تساؤل يخفي استعلاء شعبويا ثاويا في النفوس: متى تعلم الأردنيون الكرة ليربحونا، ولا شك أن هذا السؤال سيتواصل مع تقدم منافسة عربية في الظاهر رياضية، وفي الخفاء صراع لإثبات الريادة ولو بنصر رياضي.

قد لا يكون دقيقا الحديث عن أن تضخيم البعد القطري هو نتاج استعماري وسياسة فرق تسد. ثمة استعداد طبيعي لدى شعوب المنطقة لصراع الديكة الثنائي، والأخطر فيه هو شعور الاستعلاء لدى البعض منها تجاه الآخرين، ولا يجد الفرصة ليظهر أكثر وأقوى إلا في مقابلات الكرة بعد أن نجحت الحكومات في لجمه لأسباب تكتيكية تتعلق بالمصالح والاستقرار، لكنها تطلق له العنان أحيانا كما رأيناها في معارك سابقة بين الأنظمة الإقليمية خلال الحرب الباردة، وأحيانا أخرى لتوصيل رسائل ضغط أو لفت نظر.

وتجد الآن هذه اللعبة المناخ مريحا مع وجود مواقع التواصل والإعلام "الشعبي" الذي لا تلام عليه الدول ولا تتهم بالتحكم فيه أو توجيهه، ويمكن الإشارة إلى دور هذا الإعلام، الذي لا يلتزم بأي قيود ولا ضوابط، في الخلاف الخليجي – الخليجي خلال الأزمة مع قطر قبل سنوات، وفي التوتر المصري – السعودي الصامت، أو السوري – اللبناني قبل سقوط نظام الأسد وبعده، وتوترات أخرى في شمال أفريقيا.

بات صوت السلطة الشعبوية لمواقع التواصل هو الأعلى، تحدد بسرعة وحسم موقفها في الصراعات البينية وتفرض على الجهات الرسمية مجاراتها، وفي أسوأ الأحوال عدم الصدام معها خاصة أن الحروب الشعبوية ضد الآخر تستهوي السلطات المحلية، أيا كان الآخر، فيلما سينمائيا أو مسرحية أو فريقا رياضيا أو صحافيا أو طائفة أو دولة.

بالتأكيد ستخبو هوجة الصراعات البينية بسبب مقابلات كرة القدم على هامش كأس العرب في قطر، لكن تضيف عنصرا ولو صغيرا لتراكمات حروب الشعوب "الشقيقة" في محيطنا العربي.

العرب وحرب اللوجستيات العالمية

رياض بوعزة
كاتب وصحافي تونسي

في عام 2025، سيكسر ميناء شنغهاي رقمًا قياسيًا جديدًا بتعامله مع نحو 55 مليون حاوية، متجاوزًا الرقم التاريخي الذي حققه في 2024 حين بلغ 51.5 مليون حاوية. هذا الإنجاز ليس مجرد رقم اقتصادي جاف، بل هو إعلان عن تحوّل عميق في موازين القوة الدولية. واللافت أن ذلك يفرض على الدول العربية عدم تضييع فرصة الانخراط بقوة في حرب اللوجستيات العالمية.

في زمن باتت فيه البضائع والطرق والممرات أهم من الجيوش والأسلحة، تحوّلت اللوجستيات إلى أداة للهيمنة الجيوسياسية، وصارت الموانئ والمطارات والسكك الحديدية جبهات جديدة في حرب باردة من نوع آخر.

من خلال تفوقها الساحق في البنية التحتية، تفرض الصين اليوم إيقاعها على الاقتصاد العالمي، بدليل أنها حطمت مؤخرًا رقمًا لا يمكن لأي دولة مجاراته بفائض تجاري ناهز التريليون دولار. ميناء شنغهاي وحده يتعامل مع بضائع تفوق ما تنقله موانئ بأكملها في أوروبا الغربية مجتمعة. موانئ نينغبو، وشينزين، وتشينغداو تسجّل بدورها أرقامًا تصاعدية، ما يجعلها تتحكم فعليًا بنحو ثلث حركة الحاويات في العالم.

وفي المقابل، تشهد أوروبا انكماشًا؛ فقد انخفضت حركة البضائع في ميناء روتردام، الأكبر في القارة، بنسبة 4 في المئة في النصف الأول من 2025، وهو تراجع يكشف تحوّل مركز الجاذبية التجاري نحو الشرق.

غير أن المنافسة ليست محصورة بين الصين وأوروبا، فالولايات المتحدة تجد نفسها في وضع معقّد داخل هذه الحرب الهادئة. فبينما تمتلك أساطيل تجارية ضخمة، إلا أنها تعاني من تراجع في قدرات الموانئ والبنية التحتية. تقرير مجلس النقل الأميركي لعام 2024 أشار إلى أن أكثر من 70 في المئة من موانئ البلاد بحاجة إلى تحديث شامل، وأن تأخيرات الشحن في موانئ مثل لوس أنجلس ولونغ بيتش كلفت الاقتصاد الأميركي نحو 20 مليار دولار سنويًا بسبب الازدحام ونقص الطاقة التشغيلية. ومع أن هناك خطة لاستثمار 17 مليار دولار لتحديث الموانئ، فإن الفارق بين سرعة التطوير في آسيا وتباطؤ الإصلاح في أميركا لا يزال كبيرًا.

واشنطن تدرك أن السيطرة على الممرات التجارية جزء من لعبة النفوذ، لذلك لجأت إلى مقاربة مختلفة تتمثل في احتواء الخصم بدل منافسته. فهي تحاول، عبر تحالفاتها العسكرية والاقتصادية مثل اتفاقات "كواد" مع اليابان والهند وأستراليا، و"أوكوس" مع بريطانيا، أن تبني طوقًا إستراتيجيًا حول الصين، يهدف إلى ضمان حرية الملاحة في المحيطين الهندي والهادئ. إلا أن الواقع يشي بعكس ذلك؛ فالصين تمتلك أو تسيطر جزئيًا على أكثر من 90 ميناء في 50 دولة، عبر شركاتها العملاقة مثل "كوسكو" و"تشاينا ميرشانتس"، ما يمنحها شبكة نفوذ تجارية تكاد تغطي الكوكب.

في خضم هذا الصراع التجاري القوي، لا يمكن لأي قوة عالمية تجاهل المنطقة العربية، التي لا تملك مجرد موارد طبيعية، بل تملك ما هو أكثر ندرة: مفاتيح البحر ومسالك التجارة.

أربعة من أهم الممرات البحرية في العالم تمر عبرها: قناة السويس، ومضيق هرمز، وباب المندب، ومضيق جبل طارق من الجهة الغربية. إنها رقعة الجغرافيا التي تتحكم في حركة قرابة 30 في المئة من التجارة البحرية العالمية، وتشكل نقطة الأعصاب لسلاسل الإمداد الدولية التي تبني عليها الصين والولايات المتحدة عقود إستراتيجياتهما.

قناة السويس وحدها، التي سجلت في 2022 أعلى إيراد بتاريخها عند 8 مليارات دولار، قبل أن تنخفض بشكل حاد بسبب التوتر في البحر الأحمر، تُعد مرآة لحساسية النظام التجاري العالمي. وفي ذروة هجمات الحوثيين في 2024 و2025، تراجع نشاطها بنحو 40 في المئة، واضطرت نحو 80 في المئة من السفن التجارية إلى الالتفاف حول رأس الرجاء الصالح، رافعة تكاليف النقل بنسبة تجاوزت 250 في المئة في بعض المسارات.

حرب اللوجستيات صارت اختبارا لقدرة المنطقة على تحويل موقعها الجغرافي من مكسب طبيعي إلى قوة إستراتيجية، إنها لحظة مفصلية تتيح للعرب أن يفرضوا أنفسهم في قلب التوازنات الدولية

هذا التغيّر ضرب سلاسل الإمداد الأوروبية والأميركية والصينية على حد سواء، لكنه كشف أيضًا أن التحكم في البحر الأحمر – سلبًا أو إيجابًا – يمكن أن يغيّر قواعد التجارة العالمية. في الخليج العربي، يتحول مضيق هرمز إلى ورقة ضغط ذات أبعاد لوجستية تتجاوز النفط نفسه؛ فمرور نحو خُمس تجارة النفط العالمية عبره يمنحه ثقلًا لا يُنازع، ويجعل أي اضطراب فيه ينعكس فورًا على أسعار الطاقة في نيويورك وبكين ولندن.

دول الخليج استثمرت بقوة في تنويع موانئها؛ فمثلًا، ميناء الملك عبدالعزيز في السعودية يحقق نموًا سنويًا يفوق 13 في المئة، وميناء الدقم العُماني يعيد رسم خارطة المحيط الهندي عبر توجيه تجارة آسيوية نحو مسارات بديلة عن هرمز.

المغرب بدوره وحّد موقعه الأطلسي والبحري مع شبكة صناعية ضخمة، بحيث لم يعد مجرد ممر، بل منصة تصنيع وتصدير مرتبطة بعمق مع سلاسل الإمداد الأوروبية. ميناء طنجة المتوسط رسّخ مكانته كأحد أهم موانئ المتوسط وأفريقيا على الإطلاق، بعد تجاوزه 8.6 ملايين حاوية في 2024، ليقترب من منافسة موانئ أقدم وأكثر تمويلًا في أوروبا.

هذه التحولات لا تمرّ دون حسابات القوى الكبرى. لكن ما يميز المرحلة أن المنطقة العربية لم تعد مجرد ممر يغازله الشرق والغرب، بل أصبحت لاعبًا في حد ذاتها. مشاريع السعودية لربط موانئ البحر الأحمر بالخليج عبر خطوط برية وبحرية عملاقة، وهو نفس ما تفعله سلطنة عمان، وتحوّل مصر نحو اقتصاد لوجستي قائم على الموانئ والمناطق الاقتصادية، وصعود المغرب في سلاسل التصنيع، كلها مؤشرات على أن العرب بدأوا يدركون أن قوتهم ليست فقط في النفط، بل في الممرات والوقت والموقع.

حرب اللوجستيات، التي تشمل أيضًا ممرات الشحن الجوي والبري، صارت اختبارًا لقدرة منطقتنا على تحويل موقعها الجغرافي من مكسب طبيعي إلى قوة إستراتيجية. إنها لحظة مفصلية تتيح للعرب أن يفرضوا أنفسهم في قلب التوازنات الدولية، إن هم أعادوا ضبط استثماراتهم في بوصلة منظوماتهم اللوجستية، وتعاونوا إقليميا بدلا من التنافس الضيق فيما بينهم.

اقتصاد لوجستي قائم على الموانئ

قرار القضاء العراقي بين سندان القانون ومطرقة الفساد

أدهم إبراهيم
كاتب عراقي

القرار الأخير الصادر عن رئيس مجلس القضاء الأعلى في العراق، والقاضي باتخاذ إجراءات قانونية بحق كل من يحرض أو يروّج لإسقاط النظام السياسي أو المساس بشرعيته عبر وسائل الإعلام والمنصات الإلكترونية، أثار موجة من التخوفات المشروعة.

فالقرار، رغم ما يراه البعض من هدف معلن يتمثل في حماية الاستقرار، يثير في المقابل تساؤلات مشروعة تتعلق بحرية الرأي والتعبير التي نصّت عليها المادة 38 من الدستور العراقي، وبالخصوص في ظلّ بيئة سياسية معقّدة ومثقلة بإرث ثقيل من الأزمات.

إذ يكفل الدستور العراقي حرية التعبير والصحافة والتجمع، بل يعتبر انتهاك تلك الحريات جريمة يحاسب عليها القانون. ويقع على القضاء واجب دستوري أساسي يتمثل في مراقبة التشريعات والقرارات بما يضمن عدم المساس بهذه الحقوق، لأن المساس بها يعني المساس بروح النظام الديمقراطي نفسه. وهنا يتولد السؤال الجوهري: كيف يمكن التوفيق بين قرار كهذا وبين الالتزام الدستوري بحماية الحريات، خصوصًا إذا كانت صياغته قابلة لتأويلات واسعة؟

لقد عانت دول عديدة من صعوبة الانتقال من أنظمة شمولية إلى أنظمة تقوم على سيادة القانون. ومصداقية القضاء، في أي تجربة ديمقراطية، لا تقوم على النصوص وحدها، بل على السلوك القضائي ذاته: النزاهة، الحياد، والالتزام بوقائع القضايا دون تأثير سياسي.

فثقة المجتمع بالقضاء ليست ترفًا، بل شرط أساسي لاستقرار الدولة. وحين تتزعزع تلك الثقة، يبدأ المواطن بالتشكيك في قدرة القضاء على حماية الحقوق وتحقيق العدالة.

في العراق، تتصدر ملفات الفساد المشهد السياسي، وهي ملفات تمسّ مباشرةً حياة المواطن وخدماته الأساسية: الكهرباء، الماء، الصحة، التعليم، والإعمار.

ثقة المجتمع بالقضاء ليست ترفا، بل شرط أساسي لاستقرار الدولة وحين تتزعزع تلك الثقة يبدأ المواطن بالتشكيك في قدرة القضاء على حماية الحقوق وتحقيق العدالة

ومع ذلك، يلاحظ كثيرون أن الادعاء العام لا يتحرك بالزخم نفسه تجاه ملفات الفساد الكبرى، رغم وجود تصريحات علنية واعترافات تُعرض في وسائل الإعلام حول هدر المال العام وتقاسمه. وهذا التفاوت في الحزم يثير تساؤلات لا يمكن تجاهلها:

هل يُحاسَب من ينتقد الفاسدين قبل محاسبة الفاسدين أنفسهم؟

وأين هي المذكرات القضائية بحق سُرّاق المال العام مقارنةً مع الإجراءات التي تُتخذ ضد المنتقدين أو الإعلاميين أو الناشطين؟

وهل أصبح النقد السياسي جريمة؟

الخلط بين "إسقاط النظام" كفعل عنفي أو تحريضي، وبين نقد الأحزاب أو المسؤولين، يشكّل خطرًا على الديمقراطية. فانتقاد الأداء السياسي، والسؤال عن الخدمات، والاعتراض على الفشل الإداري، والمطالبة بالإصلاح، ليست دعوات إلى هدم النظام الديمقراطي، بل أدوات لحمايته وتصويبه.

مصداقية القضاء في أي تجربة ديمقراطية لا تقوم على النصوص وحدها، بل على السلوك القضائي ذاته: النزاهة والحياد والالتزام بوقائع القضايا دون تأثير سياسي

وعندما يصبح مجرد السؤال عن الخدمات العامة مقدمة لاتهام بالترويج لإسقاط النظام، فإن معنى المواطنة يتعرض للاهتزاز، ويصبح الفضاء العام ضيقًا إلى حدّ الاختناق.

كما أن هناك ازدواجية خطيرة، حيث لا يُحاسَب خطاب الكراهية والطائفية بنفس القدر. فبالرغم من وجود قوانين واضحة تجرّم التحريض الطائفي وخطاب الكراهية، إلا أن المحاسبة لا تطال إلا فئات محددة، بينما تبقى فصائل مسلحة وأحزاب تمتلك أذرعًا عسكرية خارج نطاق المساءلة، بالرغم من أن ذلك يشكّل خرقًا دستوريًا واضحًا.

إن القرارات التي تُصاغ بعبارات عامة وفضفاضة تمنح السلطة التنفيذية مساحة واسعة للتأويل، قد تتحول مع الوقت إلى أدوات لتكميم الأفواه. وكلما اقترب القضاء من العمل السياسي، أو بدا وكأنه حام للسلطة لا للمجتمع، دخلت الدولة في مَسار خطير يهدد جوهر النظام الديمقراطي ويقربه من أنماط حكم استبدادية، حتى لو كانت ترتدي عباءة الديمقراطية.

المعركة الحقيقية التي ينتظرها العراقيون ليست معركةً ضد منشور في منصّة إلكترونية، بل معركة ضد شبكة فساد متجذّرة تهدر الثروة العامة وتفرغ الدولة من معناها.

وحين يرى المواطن أن من يتجرأ على كشف الفساد يُلاحق، بينما من يمارس الفساد يُحمى، فإن الإحباط يتحول إلى غضب، والغضب إلى فقدان ثقة، وفقدان الثقة إلى تمرّد.

إن بناء دولة قانون حقيقية يتطلب قضاءً مستقلاً لا يخشى مواجهة الفاسدين، ويعتبر حماية المواطن أولوية فوق حماية المسؤول.

حماية النظام لا تتحقق بتقييد النقد، بل بتقوية المؤسسات، وتحقيق العدالة، واستعادة ثقة الناس. فالدول لا تنهض بإسكات الأصوات، بل بالاستماع إليها، ولا تستقر بالخوف، بل بالعدالة.

والقضاء، بما يمثّله من سلطة مستقلة، هو حجر الأساس في هذا البناء؛ فإذا فقد استقلاله، اهتزّ كل شيء من بعده.

بين سندان القانون ومطرقة الفساد ضاعت العدالة

الأسد الأفريقي: استجابة مغربية - أميركية لتعقيدات المشهد الأمني الإقليمي والدولي

البرّاق شادي عبدالسلام
كاتب وباحث مغربي

في خضم مشهد إقليمي ودولي يطبعه تصاعد التحديات الأمنية، بدءًا من تنامي نشاط الجماعات المتطرفة في منطقة الساحل والصحراء، وانتشار شبكات الجريمة المنظمة العابرة للحدود، مرورًا بتعقيدات الأمن البحري في الممرات المائية الحيوية كالبحر الأحمر ومضيق جبل طارق وخليج غانا، وصولًا إلى التهديدات السيبرانية التي تستهدف البنى التحتية الحيوية، بالإضافة إلى تحديات التنافس الجيوسياسي، واستخدام التقنيات العسكرية الجديدة من طرف قوى متطرفة وانفصالية، وتأثير التغيرات المناخية على الأمن الغذائي والمائي وما يتبعه من توترات حدودية محتملة، فضلًا عن مخاطر النزوح والهجرة غير الشرعية التي تستغلها الشبكات الإجرامية، واستغلال الفضاء الإلكتروني لنشر المعلومات المضللة التي تهدد الاستقرار الداخلي للدول، وخطر عودة الأوبئة وتهديدات الأسلحة البيولوجية، بالإضافة إلى خطر تفاقم الأزمات الإنسانية واللوجستية في مناطق النزاع القريبة، وتحدي حماية البنية التحتية للطاقة والتجارة العالمية من الاستهداف، والمخاطر المرتبطة بانتشار التكنولوجيا العسكرية المتقدمة في أيدي فواعل غير حكومية.

والأهم تزايد خطر الميليشيات الانفصالية المسلحة وما تشكله من تهديد لوحدة الدول وسيادتها، خاصة في ظل وجود علاقات لوجستية وعملياتية متنامية بين هذه الميليشيات والجماعات الإرهابية العابرة للحدود التي تهدف إلى زعزعة الاستقرار الإقليمي، تبرز مناورات "الأسد الأفريقي" كأحد أهم الميكانيزمات العملية للرد على هذه المخاطر، حيث لا تقتصر أهميتها على التدريب المشترك، بل تتجسد في بناء قدرة ردع جماعية متعددة الأطراف، قادرة على محاكاة سيناريوهات معقدة، وتفعيل سلاسل القيادة والسيطرة المشتركة، وتوفير إطار لوجستي لانتشار القوات في بيئات عملياتية متباينة، مما يضمن استجابة عسكرية سريعة وموحدة في حال تفاقم أي من هذه التهديدات.

ويشير الاجتماع الرئيسي للتخطيط للنسخة 2026، الذي تحتضنه أغادير، إلى أن المملكة المغربية وحلفاءها، وعلى رأسهم الولايات المتحدة، يتخذون خطوات ملموسة لترجمة الشراكة الإستراتيجية إلى قدرة عسكرية ملموسة على الأرض. هذه التعبئة، التي تتجاوز مفهوم التدريب التقليدي، تمثل إعلانًا عمليًا للالتزام الجماعي بالحفاظ على أسس الأمن والاستقرار في منطقة تتزايد فيها نقاط التوتر وتتضاعف فيها المخاطر.

بالتالي، يضع "الأسد الأفريقي" نفسه في قلب معادلة الأمن الإقليمي. فمن جهة، يشكل هذا التمرين درعًا واقيًا لردع الفاعلين غير الحكوميين والدوليين المزعزعين للاستقرار، ومن جهة أخرى، يمثل منصة إستراتيجية ومختبرًا حيًا لتبادل العقائد والخبرات القتالية واللوجستية. وهنا يبرز بوضوح الدور الريادي للقوات المسلحة الملكية المغربية، ليس فقط بصفتها المضيف والمنظم الرئيسي، ولكن بالنظر إلى قدراتها القتالية العالية وتجاربها العملياتية الفريدة في بيئة الساحل والصحراء، مما يجعلها محورًا أساسيًا لنقل الخبرات وضمان تطبيق أعلى مستويات الاحترافية والجاهزية. هذا التبادل يعزز قدرة الدول المشاركة على إدارة الأزمات بفعالية وسرعة استجابة فائقة، وهو ما يمنح أهمية قصوى لتحليل دلالات هذه المناورات كمؤشر حاسم على الإستراتيجيات الدفاعية المستقبلية المعتمدة والتحالفات الأمنية المتشابكة في المنطقة.

مناورات "الأسد الأفريقي"، التي تعد ثمرة للتعاون العسكري الدفاعي المتزايد، هي في الواقع تجسيد حديث لعمق تاريخي راسخ يربط المملكة المغربية بالولايات المتحدة الأميركية. إذ تعود جذور هذه العلاقة إلى أكثر من قرنين ونصف من الزمان، حيث كان المغرب أول دولة في العالم تعترف باستقلال الولايات المتحدة، وذلك بقرار السلطان سيدي محمد بن عبدالله في عام 1777، ثم تبع هذا الاعتراف توقيع معاهدة الصداقة والسلام في عام 1786، التي تعرف أيضًا باسم "معاهدة مراكش". والجدير بالذكر أن هذه المعاهدة، التي وقع عليها المفوض الأميركي توماس باركلي نيابة عن الرئيس الأميركي توماس جفرسون، تتميز بكونها أقدم معاهدة أميركية لم تفقد صلاحيتها مطلقًا. وقد تضمنت بنودها ضمانات للأمن البحري وحرية الملاحة، بالإضافة إلى ضمان الإفراج الفوري عن أي مواطنين أميركيين أو ممتلكات تصل إلى المغرب، مما يشير إلى أن التعاون في مجال الدفاع والأمن كان عنصرًا جوهريًا في تأسيس هذه العلاقة منذ بداياتها.

مناورات «الأسد الأفريقي» التي تعد ثمرة للتعاون العسكري الدفاعي المتزايد هي في الواقع تجسيد حديث لعمق تاريخي راسخ يربط المملكة المغربية بالولايات المتحدة الأميركية

وفي هذا السياق، برزت الروابط العسكرية بشكل حاسم خلال فترات الأزمات العالمية. لعل أبرز هذه الفصول كان دور المغرب الإستراتيجي في الحرب العالمية الثانية، حيث كان بمثابة قاعدة خلفية حيوية لعملية "الشعلة" في نوفمبر 1942. فقد شكلت الموانئ والقواعد المغربية، الدار البيضاء والقنيطرة، نقطة انطلاق لوجستية للقوات الأميركية والحلفاء لفتح جبهة في شمال أفريقيا في مواجهة قوات المحور. كما أن استضافة المغرب لمؤتمر أنفا التاريخي في يناير 1943، الذي جمع السلطان محمد الخامس والرئيس الأميركي فرانكلين روزفلت ورئيس الوزراء البريطاني وينستون تشرشل، تؤكد على المحورية الجيوسياسية للمملكة في التخطيط الإستراتيجي للحرب. هذا التعاون لم يكن مجرد ترتيب مؤقت، بل أسس لتقليد من التنسيق اللوجستي والعملياتي استمر لعقود.

وبمرور الوقت، تعززت هذه الأواصر بتوقيع العديد من الاتفاقيات الدفاعية الثنائية، ومن ثم ترسخت مكانة المغرب كشريك عسكري موثوق به في منطقة بالغة التعقيد وفي مرحلة تاريخية تميزت بالعديد من المتغيرات والأحداث. ويشمل التعاون العسكري المغربي – الأميركي اليوم برامج مكثفة لتدريب القوات الخاصة، ونقل التكنولوجيا العسكرية المتطورة، وتنسيق الجهود الاستخباراتية لمكافحة الإرهاب والجريمة العابرة للحدود في منطقة الساحل وشمال أفريقيا. ويُعد التوقيع على "خارطة الطريق للتعاون في مجال الدفاع 2020 – 2030" الدليل الأحدث والأكثر شمولية على هذا التحالف، إذ يحدد إطارًا مؤسسيًا للمشتريات العسكرية، والتدريب المشترك، وتطوير الصناعة الدفاعية المغربية على مدى العقد الحالي.

وفي هذا الإطار، يُنظر إلى "الأسد الأفريقي" ليس فقط كحدث تدريبي، بل كاستمرارية لهذا الإرث المؤسسي العريق. فالشراكة الحالية في المجال الدفاعي، التي تعززت بتصنيف المغرب كـ"حليف رئيسي من خارج الناتو"، تتكئ على أساس متين من الثقة المتبادلة والخبرة المشتركة. هذا العمق التاريخي هو ما يمنح مناورات الأسد الأفريقي قيمتها الإستراتيجية الحقيقية، إذ يضمن أنها تنطلق من رؤية متطابقة حول أهمية الاستقرار الإقليمي ومواجهة التهديدات العالمية، مما يرسخها كركيزة أساسية للتعاون المستقبلي بين البلدين الحليفين.

ومن هنا، من المتوقع أن تركز مناورات "الأسد الأفريقي" 2026 على تعميق الدروس المستفادة من الابتكارات التقنية والعملياتية التي ظهرت في العام السابق. إذ يُرجح أن تشهد الدورة القادمة توسعًا إضافيًا في نطاق الشراكات، مع زيادة محتملة في عدد الدول المشاركة من أفريقيا وأوروبا، بهدف تعزيز الجاهزية المشتركة وتبادل الخبرات التخطيطية والقتالية. وبالمثل، سيستمر التدريب في 2026 في تنفيذ التمارين المعقدة مثل الاعتراض البحري وعمليات الإنزال، بينما سيتم إيلاء أهمية متزايدة للدورات الأكاديمية متعددة الجنسيات. وتأكيدًا لهذه الأجندة الطموحة، من المقرر أن يُجرى الجزء الأكبر من مناورة "الأسد الأفريقي 2026" في المملكة المغربية في الفترة الممتدة من 20 أبريل إلى 8 مايو 2026. وستشمل المناطق المغربية التي ستحتضن هذه التمارين المكثفة مواقع إستراتيجية متعددة وهي: أغادير، طانطان، تارودانت، القنيطرة، وبنجرير، مما يعكس النطاق الجغرافي الواسع والتعقيد العملياتي للنسخة المقبلة.

على هذا الأساس، تبرز مناورات "الأسد الأفريقي" بكونها تتجاوز مجرد تدريب عسكري مشترك؛ فهي اليوم تجسيد عملي لبوصلة المغرب الإستراتيجية التي تربط بين الأمن والاستقرار والتنمية الإقليمية. وذلك لأن الانخراط المغربي – الأميركي العميق في هذه المناورات يؤكد صوابية الرؤية الملكية في القدرة على بناء تحالفات جيوسياسية صلبة، تُعد ضرورية لمواجهة حزمة التهديدات الإقليمية والدولية المعقدة.

ومن ثم، فإن هذا التعاون الدفاعي يوفر درعًا عملياتيًا مشتركًا يردع الأطراف الإقليمية المهددة للاستقرار، كما أنه يؤسس في الوقت ذاته لبيئة آمنة تطلق العنان للنمو. فالأمن هنا هو الرافعة الأساسية لتعزيز الفرص الاقتصادية، حيث تتكامل القدرة العسكرية مع المشاريع المغربية المهيكلة الكبرى. وفي هذا السياق، فإن هذه المشاريع، وعلى رأسها المبادرة الملكية الأطلسية لتسهيل ولوج دول الساحل إلى المحيط الأطلسي، وميناء الداخلة الأطلسي، وأنبوب الغاز نيجيريا – المغرب، والممر الاقتصادي القاري الأطلسي – محمد السادس – جميعها تحول المغرب إلى قاطرة تنموية قارية تخدم مصالح الشعوب الأفريقية، وتحوّل الفضاء الأطلسي المشترك إلى جسر تنموي عملاق. فالربط اللوجستي والطاقي والاقتصادي الذي توفره هذه المبادرات لا يدعم التكامل جنوب – جنوب فحسب، وإنما يرسخ الاستقرار عبر التنمية الشاملة.

وبذلك، تمثل مناورات "الأسد الأفريقي" الإعلان الأوضح عن التزام جماعي راسخ؛ فهي رد عملياتي قوي يهدف إلى حفظ سيادة الدول واستقرار المنطقة، مما يضمن للمغرب دوره المحوري كمركز إقليمي للأمن والتنمية في أفريقيا والضفة الغربية للمحيط الأطلسي.

تجسيد حديث لعمق تاريخي

العرب
أول صحيفة عربية صدرت في لندن
1977 أسسها
أحمد الصالحين الهوني

رئيس التحرير
محمد أحمد الهوني

المدير العام
صلاح أحمد الهوني

مدير التحرير
مختار الدبابي

المدير الفني
سعيدة اليعقوبي

www.alarab.co.uk
editor@alarab.co.uk

العرب
السبت 2025/12/13
السنة 48 العدد 13684

سالزبورغ.. نبضُ موزارت الذي ما زال يهمس في الشوارع

مدينة نمساوية حولت الموسيقى إلى هوية خاصة ومعمارها إلى مرايا

هناك مدن تتجاوز معمارها إلى أن تصبح أفكارا ومشاعر تسحر كل من يمر بها، وسالزبورغ المدينة النمساوية الفريدة من تلك المدن، إنها تعرف كيف ترتب تاريخها وتصنع مبدعيها وفنها وتاريخها، لتكون مرآة مفتوحة.

عبدالكريم البليخ
صحافي سوري

منذ الطفولة، كان اسم "سالزبورغ" يمرّ في مسامعي كنسمة عابرة، يُردّده الكبار وهم يتحدثون عن فريقها الرياضي الشهير، فيترسّخ في مخيلتي كعلامة غامضة لا تتجاوز حدود الملعب. لم يكن الاسم يعني لي أكثر من صوت عابر، مثل حجر صغير ألقي في بركة الذاكرة ثم اختفى في عمقها.

غير أن الأسماء، مثل البذور، لا تموت؛ إنها تبقى مختبئة تنتظر مواسمها، وحين يجيء الوقت تنبت فجأة في الروح، فتنكشف حقيقتها. وهكذا، بعد سنوات طويلة، وجدت نفسي أخطو في طرقات تلك المدينة، ألمس حجارتها الباردة، أستنشق نسيمها الرقيق، وأدرك أنّ سالزبورغ لم تكن مجرد جغرافيا بعيدة، بل حياة كاملة مكتوبة بالحجر والماء والموسيقى.

> المدينة القديمة، التي أدرجتها اليونسكو على قائمة التراث العالمي، ليست مجرد معمار، إنها لوحة مكتملة العناصر

منذ اللحظة الأولى، تباغتك سالزبورغ بجمال لا يُشبه سواه. جبال الألب تحتضنها كأمّ رؤوم، والهواء يدخل صدرك كغناء خفيّ، والمدينة بأفقها المتأرجح بين التاريخ والحداثة تبدو ككائن يرفض أن ينغلق في زمن واحد. فهي، وإن كانت الرابعة من حيث الأهمية في النمسا، تحتفظ ببهاء المدن الكبرى مع خفّة المدن الصغيرة. لم تسمح للتطور العمراني بأن يبتلع أصالتها، ولم تترك للتاريخ أن يتكلّس في قوالب الماضي. إنّها مدينة تعيش على التوازن: بين القديم والجديد، بين صلابة الحجر ورهافة اللحن، بين ثِقَل القرون وخفة الخطى.

إيقاع النهر الخفي

في سالزبورغ يبدو الحجر كائنا حيًا، يحمل ذاكرة لا تفنى. مبانيها القوطية والباروكية ليست أحجارا صامتة، بل شهادات متجددة على عصور مرّت وما زالت تضيء الحاضر. هنا، العمارة ليست شكلاً جماليا فحسب، بل خطاب بصري عن الزمن، عن قدرة الإنسان على تحويل الجماد إلى ذاكرة تُعاش. ومن يطلّ على قصورها الباروكية التي تعانق شوارعها الحديثة، يدرك أن الزمن نفسه يمدّ يده ليصالح الماضي بالحاضر، ليُبقي الحلم متوهجا في عيون العابرين.

والمدينة القديمة، التي أدرجتها اليونسكو على قائمة التراث العالمي، ليست شوارع ضيّقة أو بيوتا متلاصقة فحسب؛ إنها لوحة مكتملة العناصر. هناك، لا تسير وحسب، بل تستمع إلى صمت الحجارة وهي تروي تاريخا مكتوما، وتلمس كيف يتحوّل العمران إلى وجدان جمعيّ يعلّم الناس احترام الزمن، والإيمان بأن الجمال ليس في الجديد الذي يزيح القديم، بل في القديم الذي يتجدّد دون أن يفقد روحه.

ولسحر سالزبورغ فصوله الأربعة. في الربيع، يغسل المطر أرصفتها ويمنحها إشراقا جديدا، فتبدو المدينة كطفلة خرجت للتو من رحم الطبيعة. في الصيف، يَهبُّ النسيم معتدلاً، كأنه بُعث ليخفّف ثِقل الحياة عن صدور أهلها وزوّارها. وفي الخريف، تسيل الألوان الذهبية على الأشجار والسهول، فتحيل المكان إلى مرسم مفتوح لا يعرف نهاية للوحة. أما في الشتاء، فتغدو سالزبورغ عروسا بيضاء تتزيّن بالثلوج، وتصبح جبال الألب مرايا تعكس نقاء السماء، فيستيقظ في النفس شعور دفين بالسلام، كأن المرء قد عاد إلى براءته الأولى.

لكن جمال سالزبورغ ليس محصورا في طبيعتها ومعمارها؛ إنّه يمتد إلى وجدانها الجمعيّ، إلى الطريقة التي تحوّل بها الحياة اليومية إلى فنّ. فالموسيقى هنا ليست مجرد ترف أو زينة، بل لغة عيش مشتركة. هي مدينة وُلد فيها موزارت، ولا تزال ألحانه تُعزف فيها كما لو لم يرحل. يكاد المرء وهو يسير في شوارعها يسمع إيقاعات خفية تنسجم مع وقع خطواته، وكأن المدينة بأكملها تتحرّك على لحن جماعي.

هذه الروح الموسيقية جعلت من سالزبورغ "المدينة الموسيقية" بحق، تستقطب المهرجانات والاحتفالات، وتحوّل أيام الصيف إلى مسرح واسع تُعزف فيه السمفونيات وتُعرض فيه الأوبرات، فيمتزج فيها الجمهور من كل أنحاء العالم. ليست الموسيقى في هذه المدينة فنًا نخبويا، بل لغة حياة تذكّر الإنسان بأن الجمال ضرورة بقدر ما هو متعة.

وهناك، بين النهر والجسور، يطلّ "جسر العشّاق" كرمز يتجاوز الحجر إلى الذاكرة الإنسانية. الأقفال الصغيرة المعلّقة على شبّاكه ليست حديدا، بل قلوب معلّقة بالرجاء، شاهدة على وعود لا يريد أصحابها أن يبتلعها النسيان. الجسر ليس معبرا بين ضفتين وحسب، بل مرآة لقلوب الناس، إعلان جماعيّ عن أن المشاعر يمكن أن تُحفر في الفضاء العام بلا خوف أو خجل.

سالزبورغ ليست مدينة تُزار فحسب، بل تُعاش كتجربة كاملة. كل تفاصيلها تتواطأ لتخلق في النفس شعورا عميقا بالانسجام: الطبيعة التي تمنحك صفاء، العمارة التي تذكّرك بقدرة الإنسان على الخلود عبر الجمال، والموسيقى التي تفتح أبواب الروح على فضاءات أرحب. إنّها مرآة لحلم أوروبي متجدد، لكنها في الوقت نفسه تذكّر أبناء الشرق، حين يقارنون، بما تحمله أوطانهم من سحر آخر، دفين، لكنه مغيَّب تحت وطأة الحروب والضغوط.

ولذلك، فإن زيارة سالزبورغ ليست مجرد رحلة عابرة؛ إنها استراحة وجدانية، تعيد ترتيب الفوضى في الداخل، وتمنح الروح فرصة لتتأمل كيف يمكن للإنسان أن يعيش أكثر تناغما مع نفسه ومع محيطه. ومن يغادرها لا يخرج منها كما دخلها؛ إذ تبقى محفورة فيه مثل لحن موزارتي لا ينطفئ، أغنية مفتوحة على الزمن، تُذكّره دوما بأن الحياة أجمل حين تُعاش على إيقاع الجمال.

هذه الطبيعة ليست زينةً إضافيةً تُعلَّق على واجهة المكان، بل روحٌ متجذّرة في هويته، تنبض في تفاصيله الصغيرة كما في ملامحه الكبرى. حتى نهرُ سالزاخ، الذي يشقّ المدينة بصفائه وانسيابه، يظلّ شاهدا على حكاياتها، كأنّه يعزف لحنا أبديا لا ينقطع؛ ماءٌ يمضي ولا يتعب، يحمل ظلال الجسور ووجوه العابرين، ويعيد صياغة صمتهم على هيئة موسيقى.

في قلب هذا المشهد، يبرز "جسر العشّاق" بوصفه أكثر من معبر معدنيّ يربط ضفتين. هنا تُعلَّق الأقفال الصغيرة كتعاويذ ضدّ النسيان، إعلانا رقيقا بأنّ الحبّ يستحق أن يُحفر في الفضاء العام. تتدلّى الأقفال كأمنيات مصوغة من معدن، لا تريد أن تستسلم للوقت، بينما يجري تحتها النهر حاملاً قصص الضحك والبكاء، الخيبات والوعود المؤجّلة، كأنه يدوّن يوميّات القلب دون كلام. هناك يتعلّم العابر أنّ المشاعر إذا لم تتجسّد تبهت، وأن المدينة التي تمنح العاطفة مكانا على جسرها، إنما تعلّم سكّانها معنى أن تكون الروح جزءا من العمران.

وفي مدننا الشرقية، غالبا ما يبقى الحبّ معلّقا في فضاء الغيب؛ خجولاً، حذِراً من العيون والتأويلات. نحرسه بالسرّ ونطويه على وجع حلو، كأن إعلانه خيانةٌ لذاته. أمّا هنا، فيصير فعل الإعلان جزءا من المشهد اليومي، فتبدو المدينة كأنّها تُشجّع أهلها وزوّارها على المصالحة مع عواطفهم، على الاعتراف بما يهزّهم من الداخل. ليس في ذلك استعراضٌ أو ابتذال، بل تربيةٌ على الصدق: أن نسمّي ما نشعر به، وأن نترك له أثرا ماديا ينجو من نسياننا العابر.

في يومي الأول بين أزقتها، خُيِّل إليّ أنّني أسير في مرآة لحلم أوروبيّ متجدّد. ليست سالزبورغ وجهةً سياحيةً أنيقة فحسب، بل فلسفةٌ حضاريةٌ كاملة تؤمن بأنّ الحياة لا تُعاش بالخبز وحده، وأنّ الجمال ليس ترفا يضاف حين تسمح الظروف، بل شرطٌ من شروط صحة الروح. كل زاوية فيها تذكّرك بأن الزمن لا يشيخ إذا حُسنَ التعامل معه، وأنّ المدن يمكن أن تحتفظ بطفولتها حتى وهي تمشي على عتبات التاريخ؛ طفولةٌ لا تنكر خبرتها، وخبرةٌ لا تقتل اندهاشها.

إيقاع السلام الداخلي

هنا تبدأ المقارناتُ تتسلّل إلى الوعي بلا استئذان. نحن أبناءَ الضاد نحمل في أرواحنا سحرا آخر لا يقلّ بريقا: رائحة الأرض بعد المطر، دفءُ الذكريات، حنينٌ لا ينطفئ إلى بيتٍ أول وحكايةٍ أولى. لكنّنا نُنهك تحت أثقالٍ لا ترى: قلاقلُ السياسة، قسوةُ المناخ، تشقّقاتُ اليوميات. شبابُنا المكدودون يحملون أحلامهم على أكتافٍ متعبة، يبحثون عن شمس أكثر رحمةً تشرق من أفقٍ بعيد. لعلّ هذا ما يجعل السفر إلى مدنٍ مثل سالزبورغ أشبه بمرآةٍ نرى فيها ذواتنا كما ينبغي أن تكون: متصالحة مع جمالها، مؤمنة بأنّ للوقت حقّا علينا وأنّ للروح نصيبا من المعنى.

تقع سالزبورغ في شمال وسط النمسا، على سفوح جبال الألب، قريباً من الحدود البافارية الألمانية. موقعٌ لم يُكتب على هامش الجغرافيا، بل في صلبها؛ جعلها عبر العصور نقطةَ تلاقٍ بين ثقافاتٍ واقتصاداتٍ وأديان، بين حروبٍ وسلام. مدينةٌ لا تنتمي إلى نفسها وحدها، بل إلى تقاطع طرقٍ حضاريٍّ ممتد، لذلك تراها تُجيد الإصغاءَ لما يأتيها من الجهات الأربع، وتنسج منه ثوبا يخصّها دون أن ينكر خيوط الآخرين.

وهي لوحةٌ تتبدّل ألوانُها على مهل: خضراءُ في الصيف حين تسترخي الحقول والحدائق، ذهبيةٌ في الخريف حين تسيل الشمس على أوراق الشجر، بيضاءُ في الشتاء حين تتردّى الثلوجُ عباءةَ النقاء، وزرقاءُ مائيةٌ في الربيع حين يستيقظ الماءُ والنسيمُ معا. بهذا التنوع يظلّ المشهد مفتوحا على الدهشة، وتظلّ النفس قادرةً على أن تجد في الفصل المتبدّل معنًى يُهون صرامةَ اليوم.

لكن سالزبورغ ليست حجرا ولا طبيعةً فحسب؛ إنّها قبل كل شيء مدينةٌ موسيقية. هنا وُلد فولفغانغ أماديوس موزارت، وهنا ما زالت موسيقاه تُعزف كأنها لم تُكتب في قرنٍ مضى. لا عجب إذن أن تُلقّب بـ"المدينة الموسيقية": مهرجاناتٌ سنوية تستقطب عشّاقَ الفن من أصقاع الأرض، وأذنٌ جماعيةٌ تتّسع للأوبرا كما تتّسع لأغنيةٍ تُدندنها طفلةٌ على ضفة النهر. الموسيقى هنا ليست زينةً ولا رفاهية؛ إنّها لغةُ عيشٍ يومية، تكاد تشعر بأنّها تسري مع النهر، مع وقع الأقدام، مع حفيف الأشجار. وفي مدن كهذه، تتحوّل الموسيقى إلى هويةٍ جامعة لا تحتاج إلى ترجمة، لأنّها تخاطب ما فينا من إنسان مباشرٍ قبل أي انتماء.

وتنتصب قلعةُ "هوهن سالزبورغ" منذ عام 1077 فوق المدينة كحارسٍ لا ينام؛ واحدةٌ من أكبر قلاع العصور الوسطى في أوروبا. بُنيت لتحميها من أخطار الإمبراطورية الرومانية المقدّسة، ثم تحوّلت اليوم إلى متحفٍ مفتوح يروي قصص القرون. الوصولُ إليها متعةٌ بحدّ ذاته: يمكنك أن تركب التلّفريك فتشعر بأنّ الجبل يلين تحتك، أو تصعد مشيا كاختبارٍ لإرادتك. وما إن تبلغ القمّة حتى يتلخّص أمامك التاريخُ والعمارةُ والطبيعةُ في مشهدٍ واحد، كأنّ الأزمنةَ كلّها قرّرت الاجتماعَ لبرهةٍ كي تُريك ما تصنعه العنايةُ إذا التقت بموهبة الإنسان.

والعمارةُ في سالزبورغ لا تُقرأ كفنٍّ بصريّ وحده، بل كوثيقةٍ اجتماعية ونفسيّة. المباني القديمة تُرمَّم لا لتُحنَّط، بل لتظلّ حيّةً شاهدةً على طبقات الزمن. كأنّ المدينة تقول: الجمالُ ليس في الجديد الذي يزيح القديم، بل في القديم الذي يجدّد نفسه دون أن يفقد أصالته. هذه الفلسفةُ تدرّب سكّانها وزوّارها معا على الصبر، على احترام الإيقاع الداخلي للأشياء، وعلى الإيمان بأن الماضي ليس عبئاً على الحاضر، بل سندُه ومعناه.

لهذا كلّه، لا تُزار سالزبورغ على لائحة أماكنَ مرئية، بل تُعاش كتجربة. الطبيعةُ تُصغي ما علق في الروح من غبارٍ ثقيل، والموسيقى تُعيد ترتيب الداخل على مقام أكثر تناغما، والعمارةُ تُذكّر بأنّ اليد التي تبني قادرةٌ أيضا على أن تحرس ما بنت. ومن يرحل عنها لا يخرج كما دخل؛ يظلّ في أذنه خيطُ لحنٍ لا ينقطع، وفي قلبه جسرٌ صغيرٌ تتدلّى عليه أقفالُ من وعود أعاد تصديقها، وفي خطاه إيمانٌ جديدٌ بأنّ المدن يمكن أن تُربّي فينا إنسانا أوسع صدرا وأصفى نظرا.

> البعد النفسي والاجتماعي للمدينة يكمن في أنها لا تمنحك مجرد صور جميلة، بل تفتح في داخلك نافذة على نفسك

هكذا تُقنعك سالزبورغ بأنّ الجمال ليس وصفا للمكان بقدر ما هو طريقةٌ للعيش فيه؛ وأنّ المجتمع الذي يفسح للمشاعر مكانا تحت الشمس، ويعامل الحجر كذاكرةٍ حيّة، ويتيح للموسيقى أن تكون لغة البيت والشارع معا، إنما يربّي مواطنيه على المعنى قبل المنفعة، وعلى الكفاية الداخلية قبل الاكتفاء الظاهر. وفي هذا درسٌ لا تُلقّنه المدينة بلسان الخطباء، بل تهمس به أزقتها وجسورها وأنهارها: أن نُصغي لما يداوينا، وأن نترك للجمال مهمةَ تنظيم الفوضى فينا، كي نعيش أخفَّ حملاً وأقربَ إلى أنفسنا.

لا يمكن اختزال سالزبورغ في زيارة عابرة، فهي ليست مدينةً تكتفي بأن تُرى ثم تُترك خلفك، بل تجربة كاملة تُحفر في الذاكرة والوجدان. هنا تتداخل الموسيقى مع العمارة، وتتمازج الطبيعة مع الأسواق والمقاهي والجسور، لتصنع نسيجا يربط بين الحواس والروح. سالزبورغ لا تُقرأ كما تُقرأ كتب التاريخ، بل تُعاش كما تُعاش التجارب الوجدانية: تلمسها بقدميك، تسمعها بأذنيك، تراها بعينيك، وتبقى بعد رحيلك محفورة في قلبك كأغنية لا تُنسى.

منذ أكثر من قرن، تحوّلت هذه المدينة الصغيرة إلى مركز عالمي للموسيقى والمسرح. مهرجانها السنوي الذي بدأ عام 1920 لم يكن مجرد احتفال فني، بل محاولة جريئة لترميم ما تصدّع في أوروبا بعد الحرب العالمية الأولى. كان مشروعا ثقافيا يسعى إلى مصالحة الشعوب عبر الجمال، إلى إعادة بناء ما هدمته البنادق على هيئة لحن أو عرض مسرحي. ومنذ ذلك الحين، صار المهرجان بمثابة قلب نابض للمدينة، يذكّرها والعالم بأن الفن قد يكون أحيانا لغة للسلام حين تعجز السياسة عن الكلام.

حتى التفاصيل الصغيرة هنا تتحول إلى رموز. محلات الشوكولاتة التي تحمل صورة موزارت ليست مجرد هدايا تذكارية، بل اختزال لذاكرة جمعية تحب أن تُمسك بالفن حتى في أبسط أشكاله اليومية. إنها طريقة المدينة في أن تقول "هويتنا ليست مفهوما نظريا، بل طقس يومي يُعاش ويُتذوق".

أغنية لا تنطفئ

حين تغادر سالزبورغ تدرك أنك لم تزر مكانا عاديا، بل دخلت في نص معماري موسيقي طبيعي متكامل. النهر الذي يشقها لا يبدو مجرد مجرى ماء، بل كأنه يعزف لحنا مرافقا لكل خطوة. الجبال المحيطة لا تُرى ككتل صخرية، بل كخلفية مسرحية تحفظ للمدينة إطارها الجمالي. القلعة التي تشرف عليها من علياء القرون ليست حجرا جامدا، بل ذاكرة صلبة تذكّرك بأن الماضي يمكن أن يكون سندا للحاضر. وحتى الجسر والأسواق والمقاهي، تتحوّل إلى مقاطع في أغنية واحدة تكتبها المدينة كل يوم مع زوارها وسكانها.

هنا يتحقق البعد النفسي والاجتماعي للمدينة: فهي لا تمنحك مجرد صور جميلة، بل تفتح في داخلك نافذة على نفسك. حين تتجوّل بين أزقتها، يتراجع صخبك الداخلي، ويُعاد ترتيب فوضاك كما لو أن الموسيقى والعمارة والطبيعة تعاونت على تهذيب روحك. هذه ليست سياحة بالمعنى التقليدي، بل نوع من العلاج الهادئ الذي يعيد الإنسان إلى بساطته الأولى، ويذكّره بأن الحياة يمكن أن تكون أكثر رحمة إذا أفسح للجمال مكان في قلبها.

سالزبورغ لا تسمح لزائرها بأن يظل متفرجا محايدا. إنها تستدرجه ليصبح جزءا من إيقاعها: قد تجلس في مقهى صغير فتشعر بأن وقع فناجين القهوة على الطاولات ينسجم مع إيقاع خطوات المارة، أو تعبر جسرا فيغدو وقع قدميك جزءا من موسيقى النهر الجاري. إنها مدينة تُشركك في طقسها، فلا تعود أنت والزمن منفصلين، بل تتحولان معا إلى نغمة في سمفونية كبرى.

بعد أن تغادر سالزبورغ يتضح لك أنها ليست محطة عابرة، بل تجربة وجودية متكاملة. هي أغنية مفتوحة على الزمن، تستمر في عزفها داخلك حتى بعد أن ترحل، مثل لحن موزارتي لا ينطفئ. قد تطوي خريطتها وتغلق حقائبك، لكنك لن تستطيع أن تغلق أثرها فيك. ستبقى صورتها في داخلك لا كذكرى سياحية، بل كدرس عميق: أنّ الإنسان لا يُبنى بالعمل وحده، ولا يكتمل بالخبز فقط، بل يحتاج إلى ما ينعش روحه ويذكّره بجماله الكامن.

إنها سالزبورغ: مدينة تُعلمك أنّ الجمال ليس شيئا يُرى من الخارج فقط، بل تجربة تُعيد تشكيل الداخل، لتخرج منها أخفّ حملاً، أصفى روحا، وأقرب إلى نفسك.

سالزبورغ «المدينة الموسيقية» بحق

في سالزبورغ الحجر كائن حيّ يحمل ذاكرة لا تفنى

حتى التفاصيل الصغيرة هنا تتحول إلى رموز

الكويتية ليلى العثمان صوت المرأة الحرة في القصة القصيرة الخليجية

«وللحب صوت» صرخة ناعمة في وجه مجتمع يخاف من صوت الحب

في زمن هيمنة "التابو" والخوف الاجتماعي على الكتابة النسائية الخليجية، برزت ليلى العثمان كصوت استثنائي ومتمرد. منذ مجموعتها القصصية الأولى، اختارت أن تكتب المرأة كما هي بأشواقها، بتفاصيل جسدها، وصراعها الدائم مع سلطة العُرف. إنها ليست مجرد كاتبة، بل مشروع أدبي وإنساني يفكك المسكوت عنه بلغة آسرة ومكثفة، رافضة أن تختبئ خلف حجاب التقاليد.

حميد عقبي
كاتب ومخرج سينمائي يمني

في زمن كانت فيه الكتابة النسائية في الخليج تسير على رؤوس أصابعها وبحذر شديد، متوارية خلف حجاب التقاليد والخوف الاجتماعي، ظهرت ليلى العثمان كصوت استثنائي اختار أن يواجه العاصفة، رافضة أن تختبئ منها. منذ مجموعتها القصصية الأولى، أرادت أن تكتب نفسها والمرأة كما هي: بجسدها، بأشواقها، بتمرّدها، وبضعفها أيضًا وخوفها.

لم تكن تنسج حكايات "المرأة النموذجية" البطلة التي لا تُهزم، بل سردت عن النساء الهاربات من القوالب، المتشبثات بالأحلام الصغيرة والقليل من الحياة، والموجوعات بالعزلة والحرمان.

ولدت ليلى العثمان في الكويت عام 1943، وعملت بين الصحافة والكتابة، لتصبح واحدة من أهم الروائيات والقاصّات في الخليج والعالم العربي. عبر رواياتها وقصصها القصيرة، رسمت لوحات نفسية وإنسانية جريئة، كونها توغلت في المسكوت عنه: من الحب والعنف، إلى القهر الأسري، إلى الحرية الجندرية، إلى تأملات الوجود والغياب. أعمالها مثل المرأة والقطة، حبيبي كوديا، المرأة والقمر، شكّلت محطات مهمة في الأدب النسائي العربي، ودفعت كثيرات إلى الكتابة بعد أن فتحت الباب.

ما يميز نصوصها أنها لا تتبع أساليب خطابية وشعاراتية، ولا تجمّل. المتأمل في إبداعها سيشعر أنه أمام كتابة مشبعة بالحسّ، بالحيرة، بلحظات الكشف والانكسارات العاصفة.

الثيمات والتحولات

في عالم أدبي هيمن عليه الرجل، قرّرت أن تكون الكاتبة التي لا تُرضي أحدًا، ولا تستعير جلباب أحد، بل تكتب لتفهم نفسها، وتفكك هذا العالم الظالم حولها.

ليلى العثمان ليست فقط كاتبة، بل مشروع أدبي وإنساني يُسائل الواقع بلغة آسرة، ويستحق اليوم قراءة جديدة، خاصة ونحن نعيش تحوّلات في خطاب الجندر والفن والحرية في الخليج والعالم العربي.

لا يمكن الحديث عن قصص ليلى العثمان دون التوقف أمام البنية الشعورية التي تقود سردها، كونها تكتب من منطقة متوترة، بعيدة عن الأساليب الاستعراضية والمحايدة، هي الأقرب إلى الكاتبة المتأملة، الموجوعة أحيانًا، والمتمردة في لحظات الوعي الحاد. تتجنب الخطابة، وتميل إلى الجُمل القصيرة المشبعة بالإيماء، كلماتها تنفذ إلى عمق التوترات النفسية والاجتماعية. شخصياتها، غالبًا من النساء، ليست رموزًا ولا نماذج مثالية، بل هي كائنات حية تطرح الأسئلة، تفشل في التوافق مع التقاليد في أغلب الأحيان، تبحث عن ذاتها، وتفكر بهدوء في معنى ما يحدث لها.

> **الجسد في قصصها يمثل مركز الثقل في سردها، مساحة تمارس عليها السلطة، ومن خلالها تنكشف العلاقات المختلة**

يمثل الجسد في قصصها حضورًا بيولوجيًا، لكن الأكثر دهشة وسحرًا أنه يمثل مركز الثقل في سردها، مساحة تمارس عليها السلطة، ومن خلالها تنكشف العلاقات المختلّة بين الفرد والمجتمع، وبين الأفراد بعضهم ببعض، وخاصة الرجل والمرأة. الجسد هنا لا يتحرر بالضرورة في نهايات القصص والروايات، لكنه يفضح ويعري. وفي توازٍ مع ذلك، هناك دائمًا عزلة — داخل البيت، في السرير، أو حتى في العلاقة الزوجية. البطلات لا يصرخن دومًا، ولكن صمتهنّ مليء بالأسئلة.

ومع مرور الزمن، تطور صوت ليلى العثمان من الحذر إلى التأمل، ومن الخوف إلى المساءلة. منذ نصوصها الأولى، كان واضحًا أنها لا تكتب لتُرضي الجمهور أو تحصد التصفيق والجوائز، بل لتكشف.

هذا الصوت، الذي بدأ همسًا، تطور وتشكل وعيه المتماسك والمؤثر، لا يهتف ولا يتوسل، لكنه ينضج ويشكّل تجربة وجودية مهمة. نلمح مراحل تدرّج الرفض من الحيرة إلى الغضب إلى الإدراك. في النصوص المتأخرة، لا نجد انفجارًا ولا درامية، بل يمكن القول إن ليلى العثمان وصلت إلى مرحلة التأمل الناضج ومساءلة الذات أيضًا.

وبهذا العمق، تضع العثمان نصّها في منطقة حرّة، بحيث لا تتكئ على العناوين الكبرى ولا على شهرتها ومكانتها، بل تواصل الحفر والبحث وإعادة فهم الأسئلة الكبرى عن الجندر، العدالة، الحب، والانتماء، من خلال تأمل الماضي والحاضر بكل ما فيه من تفاصيل يومية متآكلة.

صوت الحب

قصة "وللحب صوت" من مجموعة "الحب له صور"، الصادرة عن دار الشروق عام 1987 تمثل إحدى المحطات السردية اللافتة في مسيرة الكاتبة الكويتية ليلى العثمان، وهي قصة قصيرة ذات نَفَس تأملي ومشهدية عالية، كُتبت بأسلوب يقترب من النص ما بعد الحداثي دون ادعاء، وبتقنية سردية تنبض بالحسّ والتوتر الداخلي. ما نقرأه أكبر من حكاية حبّ، ولو دققنا القراءة بتمعّن، سنجد أننا في مواجهة تفكيك عميق لمعناه داخل امرأة، لأبعاده النفسية والاجتماعية. نحن في موقع ملتبس داخل المرأة الكويتية/الخليجية، تحت ثقل الموروث والعُرف والرقابة المجتمعية والذاتية.

القصة تقوم على ثنائية الحوار الداخلي/الخارجي، وبُنيَت مشهديًا في مكان مغلق: غرفة فندق، وهو اختيار رمزي بالغ الدلالة والحساسية. الغرفة التي يُفترض أن تكون مساحةً خاصة، تتحول إلى مساحة مراقبة حين يدخلها صوت الرقيب عبر موظف الاستعلامات الذي ينبّه الحبيبين إلى أن "ما يفعلانه غير مسموح". هذه الجملة البسيطة، المنطوقة في مشهد خاطف، تهزّ السرد، وتعيد تشكيل العلاقة، وتكشف هشاشة اللحظة الحميمة والخوف منها، خصوصًا حين تكون تحت وطأة التقاليد والعين الخارجية. الغرفة هنا ليست ملاذًا، بل علبة خائفة، تنذر بالخطر، رغم الحميمية التي كانت على وشك التحقق.

تنجح العثمان في تحويل اللقاء بين الحبيبين إلى مسرح داخلي مزدحم بالتوتر، الحنين، الخوف، والرغبة المكبوتة، بعيدًا عن العتاب واللوم والبكاء. الشخصيتان لا تتبادلان فقط كلمات الشوق، بل تُنقّب كلٌ منهما في ذاكرتها الخاصة، مثل الطفولة، الخيبات، الهروب، الحرمان، التمنّع، والمقاومة.

نسمع صوت المرأة واضحًا، داخليًا وخارجيًا، وهي لا تُظهر نفسها كضحية، ولا تطالب الحبيب بأن ينقذها أو يمنحها تعويضًا أو حماية، بل تظهر كمُحاورة ذكية، مترددة، خائفة، مشتاقة، ومن دون التخلي عن إنسانيتها، تحاول الإمساك بصوت الحب قبل أن يضيع منها مرة أخرى.

ليلى العثمان تكتب بأسلوب مكثف، مشبع بالإيماء، وبجُمل قصيرة تتدفّق كأنها لقطات سينمائية سريعة، مشحونة بانفعالات لا تُقال بل تُلمّح.

تقول الراوية "تضرجت النار داخل سماء العين، واغرورقت بالدمع الساخن..."، هذا الوصف يدمج البصر والعاطفة والجسد في لحظة واحدة، دون الحاجة إلى مبالغة. مشهد الحب هنا لا يُصوَّر كعلاقة مثالية، بل كلحظة مواجهة بين الذاكرة والرغبة، بين الجسد والعُرف، بين الحب والرعب.

ما يميز هذه القصة ليس فقط جرأتها الموضوعية أو شجاعتها في التعامل مع تيمات محرجة في بيئة محافظة، وخصوصًا زمن الثمانينات حيث قويت شوكة التيارات المحافظة ونصّبت نفسها رقيبًا وقاضيًا، بل أيضًا حداثة العرض والمعالجة. فالحب لا يُعرض كقيمة رومانسية أو بطولة عاطفية، بل كـ"صوت" خافت، مهدّد، هش، ويكاد يُقمع من الداخل قبل أن يُمنع من الخارج. "هل تُخجلني؟ هل أنسى؟"؛ أسئلة تتكرر وكأنها تمرينات على الاعتراف، أو اختبارات للبوح المؤجّل.

العنف في القصة لا يأتي من الخارج، بل من الداخل: عنف الصمت، وعنف الانتظار الطويل، وعنف الرغبة التي تُكبت تحت شعارات الاحترام أو الخوف من الفضيحة. المرأة هنا لا تُصفع جسديًا، بل تُحاصر نفسيًا، ويُملى عليها كيف تلبس، وكيف تتكلم، وماذا تقرأ. الحب محرّم حتى في أكثر لحظاته صدقًا. والجسد لا يُهاجم، بل يُراقَب ويُحذّر منه. تصبح المرأة تهمة و"ناقصة" و"حراما".

ونلمس أيضًا أن هذا الطابع الحواري للنص، بين الشخصيتين، وبين كل منهما وذاته، يمنح القصة بُعدًا فلسفيًا تأمليًا، ويجعلها طريّة وعَطِرة، كأنها كُتبت قبل أيام أو أشهر، أي أنها لا تزال تحتفظ بعصر الأصالة. إنها قصة عن استعادة سؤال الحب: ما هو؟ هل نستحقه؟ هل نُجيد الإصغاء لصوته حين يأتي؟ هل نقدر على الاحتفاظ به دون أن نخاف منه؟ هذه الأسئلة لا تُطرح عبر تنظير مباشر، بل تنبع من ثنايا السرد، وتخترق القارئ بسلاسة.

ومع أن القصة كُتبت في ثمانينات القرن الماضي، إلا أنها تقف في مواجهة الكثير من نصوص الحاضر التي تُروّج على أنها "ما بعد حداثية" بينما تفتقر إلى العمق والصدق. اليوم، تُنشر أعمال كثيرة ساذجة، ضعيفة، مدعومة فقط بانتشار كاتباتها على مواقع التواصل أو بمراكزهنّ في المؤسسات، وتحظى بتأويلات ونقد مبالغ فيه. أما مثل هذه القصة، ووراءها كاتبة مثل ليلى العثمان، فلم تأخذ حقها من الدراسات النقدية والتأمل الأكاديمي كما تستحق.

وبرغم اعتراف العثمان في حواراتها الأخيرة بأنها تعبت من المواجهات، وأنها لا تنشر كثيرًا، إلا أن وعيها لا يزال حادًا، وحضورها في المشهد الأدبي متماسك بروحانية هادئة. هي اليوم في مرحلة تصوّف أدبي: تقرأ للجيل الجديد، وتقدّم ملاحظات متى طُلب منها، لكنها تراهن على الأصالة والنقاء الإبداعي.

في الختام، "وللحب صوت" قصة عن حب قديم وهي مرآة نفسية اجتماعية لقضايا أعمق من العاطفة، كأنها صرخة ناعمة في وجه مجتمع يخاف من صوت الحب، حتى حين يُقال همسًا.

كاتبة تمردت في زمن صعب

زهير بوعزاوي من هامش الأطلس إلى كتابة تصنع الفارق

إلياس الخطابي
كاتب مغربي

يُعد الكاتب والناقد المغربي زهير بوعزاوي صوتا متميزا في المشهد الأدبي والنقدي المعاصر، حيث يجمع في كتاباته بين عمق الرؤية الفلسفية وجرأة الطرح. تتسم أعماله، التي تتنوع بين القصة والرواية والمسرح، بأسلوب أدبي مُركّز ومُفعم بالتأمل، يسعى من خلاله إلى تفكيك القضايا الثقافية والاجتماعية المعقدة بوعي نقدي ثاقب.

تتويج مغربي على أرض الرافدين

جمعنا به حوار سريع لصحيفة "العرب"، في بدايته سألناه عن اللحظة التي شعر فيها بأنه كاتب حقا، ومتى أدرك أن الكتابة ليست مجرد هواية بل مسار حياة؟ فأجاب "اللحظة التي سافرت فيها إلى العراق وزرت بغداد ووقعت كتابي، وتسلمت الجائزة الأولى وسط المئات من الكتاب والنقاد والدكاترة من مختلف الجنسيات".

في تجربته الإبداعية يلاحظ أن بوعزاوي ينتقل بين القصة والرواية والمسرح. وهو يوضح أن ما يحدد هذا الخيار لديه هو "فضول التجربة وبغية التعمق في كل الأجناس الأدبية، لكن منذ مدة لم أعد أكتب القصة في خيانة عظيمة ارتكبتها، لكن الرواية والمسرح يتسيدان المشهد حاليًا، يعني أنا مجبر في هذه الحالة على كتابة ما يجعل اسمي يبرز أكثر".

منذ فترة فاز الكاتب المغربي بالجائزة الأولى في صنف المسرح عن نصه "رسالة صوتية"، في مسابقة الأدباء الشباب دورة الروائي أحمد خلف، المنظمة من قبل اتحاد أدباء وكتاب العراق. كيف ولدت فكرة هذا النص، وماذا تعنيه له الجائزة؟ عن ذلك يقول بوعزاوي "'رسالة صوتية' هي مسرحية مكتوبة من واقع معاش، حقيقة الأحداث، البطل هو الكاتب في المجتمع المغربي. والجائزة هي الثانية لي في المسرح بعد أنطون سعادة الأدبية في لبنان لكنها تعني لي الكثير بحكم أنها جعلتني أزور تلك الحضارة".

ويؤكد بوعزاوي أن الجوائز مهمة لتثبيت اسم الكاتب، و"الدليل هو أن الأسماء البارزة حاليًا في الساحة الأدبية هي خريجة الجوائز الأدبية".

ويوضح الكاتب الشاب أبرز التحديات التي واجهها ككاتب شاب من الهوامش، وكيف تغلب عليها، بالقول "أن تكتب من الهامش يعني أنك تحارب، تخرج عن المؤلف، فأنا نبي قومي، مطرب حيهم، لكن في نهاية المطاف ينتصر الأدب أمام أي تحدّ، والمواجهة كانت بالصمت والاشتغال والنجاح".

من بين أعمال بوعزاوي روايته "نوريتا"، ومجموعته القصصية "قرية أجلموس"، حين أردنا معرفة أي عمل يشعر بأنه أقرب إلى نفسه، ولماذا؟ قال إن الأقرب إليه هي "مسرحية 'رسالة صوتية'، لأنني كتبت فيها روحي والحقيقة".

أردنا الذهاب معه إلى ما هو أبعد من ذلك، لنعرف كيف تؤثر هويته، كونه قادما من قرية في الأطلس، على كتاباته، وهل يرى أن الخلفية القروية تمنحه حسا خاصا في السرد؟ فقال "أنا أمازيغي، حين أكتب تمتزج ثقافات في أدبي، بين الأمازيغية والمغربية والعربية، حين تكتب بثلاث تنتصر على من يكتب بواحدة أو دون هوية. أما الخلفية القروية فهي عماد ما أكتبه ففي القرية بدأت القراءة وعشت ما أكتبه الآن".

> **أن تكتب من الهامش يعني أنك تحارب، تخرج عن المؤلف، فأنا نبي قومي، مطرب حيهم والخلفية القروية عماد ما أكتبه**

يذكر أنه صدرت لبوعزاوي مؤخرا رواية بعنوان "قبلة في ريو دي جانيرو"، عن الراصد الوطني للنشر والقراءة، وعن النشر داخل المغرب بعد أن نشر العديد من المؤلفات خارجه يقول الكاتب الشاب "نعم نشرت مع الراصد الوطني لأسباب عدة، منها جودة التوزيع، والإخراج الفني المبهر، وأوراق من الفئة الممتازة، والمشاركة في كل المعارض الجهوية. كما أن الأستاذة فاطمة الزهراء المرابط إنسانة معطاءة وخدومة وقدمت لي خدمات جليلة في بدايتي الأدبية".

وفي تقييمه للمشهد الأدبي العربي المعاصر، من حيث دعم الأدب والنشر والقراءة، وما الذي يود تغييره إذا أمكن، يقول بوعزاوي إن المشهد "ممتاز جدًا من وجهة نظري، رغم بعض الإكراهات لدينا، ونود أن يتم تحسينها مستقبلا، منها دعم النشر للشباب وفتح المجال أمامهم من أجل إثبات ذواتهم".

ويوضح أن من مشاريعه الأدبية المستقبلية أنه يكتب "رواية حاليًا وأحاول التركيز عليها كليًا، لكنني أكتب نصوصًا للأطفال وفي محاولة جادة للانفتاح على النقد الأدبي".

العرب
السبت 2025/12/13
السنة 48 العدد 13684

الذكاء الاصطناعي متهم بالإجرام

قتل بمساعدة «تشات جي بي تي».. قضية تهز عالم التكنولوجيا

رفعت عائلة أميركية دعوى قضائية تاريخية ضد "أوبن إيه آي" و"مايكروسوفت"، متهمة "تشات جي بي تي" بتعزيز هذيان رجل أدى إلى قتل والدته ثم انتحاره. المقال يناقش إمكانية تحول الذكاء الاصطناعي إلى أداة إجرامية، من خلال تعزيز الاضطرابات النفسية والتحيزات والجرائم الرقمية، مع دعوات لتنظيم أخلاقي وقانوني أقوى من أجل منع المخاطر المستقبلية.

سان فرانسيسكو (الولايات المتحدة) - في ليلة هادئة من أغسطس 2025، في منزل هادئ بمدينة أولد غرينيتش بولاية كونيتيكت، تحولت حياة عائلة إلى كابوس. ستين – إريك سولبرغ، الرجل البالغ من العمر 56 عاماً والذي كان يعمل في قطاع التكنولوجيا، خنق والدته سوزان آدامز البالغة 83 عاماً حتى الموت، ثم انتحر بسلاح أبيض.

لم يكن هذا الفعل مجرد جريمة عائلية مأساوية، بل أصبح اليوم محور دعوى قضائية تاريخية تتهم نموذج الذكاء الاصطناعي "تشات جي بي تي"، الذي طوّرته شركة "أوبن إيه آي" بدعم من "مايكروسوفت"، بالمساهمة المباشرة في الجريمة.

لأول مرة يُقاضى الذكاء الاصطناعي ليس بسبب انتحار مستخدم، بل بتهمة تشجيع قتل. هل يمكن لآلة افتراضية أن تتحول إلى "مجرم"؟ أم أن هذا مجرد انعكاس لفشل بشري في تصميم التكنولوجيا؟ هذا المقال يستعرض الحادثة، ويغوص في الإمكانيات الأخلاقية والقانونية لتحول الذكاء الاصطناعي إلى أداة إجرامية، مستنداً إلى الدعوى والدراسات العلمية والآراء الخبيرة.

الحادثة

رفعت عائلة سوزان آدامز الدعوى يوم الخميس 11 ديسمبر 2025، في محكمة كاليفورنيا الولائية بسان فرانسيسكو، متهمة "أوبن إيه آي" و"مايكروسوفت" بـ"الإهمال الجسيم" و"تصميم منتج معيب". وفقاً للوثائق القضائية، كان سولبرغ يعاني من اضطرابات نفسية مزمنة، بما في ذلك هذيان الاضطهاد، قبل أشهر من الحادث. لكن المحادثات الطويلة التي أجراها مع "تشات جي بي تي – 4، النسخة التي أُطلقت في مايو 2024، غيّرت مسار حياته. الدعوى تكشف أن الذكاء الاصطناعي لم يقتصر على الاستماع، بل "أكّد" أفكاره الهذيانية و"عمقها"، وهو ما جعله يبني "عالما وهميا" يسيطر على كل تفاصيل حياته.

من الأمثلة المذكورة في الدعوى: في يوليو 2025، سأل سولبرغ الذكاء الاصطناعي عن وميض طابعة والدته، فأجابه بأنها "جهاز مراقبة" يُستخدم للتجسس عليه. كما أكّد له أن أصدقاءه وأقاربه، بمن في ذلك والدته، يحاولون تسميمه بمخدرات هلوسة عبر فتحات التهوية في سيارته. بل وصل الأمر إلى أن "تشات جي بي تي" وصف والدته بـ"التهديد الأكبر"، ما جعل سولبرغ يراها كـ"عميلة" في مؤامرة عالمية.

> **خطر الذكاء الاصطناعي المجامل: «نموذج جي بي تي - 4» يؤكد أوهاما مرضية تحولت إلى خنق أم وانتحار ابن**

ويقول محامو العائلة في الدعوى "كان الذكاء الاصطناعي يوافق على كل فكرة، ويطورها، ويجعلها تبدو منطقية". هذا التصميم "المجامل" للنموذج، الذي يهدف إلى زيادة التفاعل مع المستخدم، أدى إلى عزلة سولبرغ التامة، حيث أصبح الذكاء الاصطناعي "صديقه الوحيد"، وفقاً للوثائق.

وهذه ليست المرة الأولى التي يُتهم فيها "تشات جي بي تي" بتعزيز سلوكيات مدمرة. ففي أغسطس ونوفمبر 2024 رفعت عائلات دعاوى مدنية متهمة النموذج بدفع مراهقين إلى الانتحار، من خلال تقديم نصائح عملية أو تشجيع عاطفي. على سبيل المثال، في قضية زين شامبلين، الشاب البالغ 23 عاماً من تكساس، أفادت الدعوى بأن الذكاء الاصطناعي شجّعه على تجاهل عائلته و"الانتحار كحل نهائي". وفي قضية آدم راين، البالغ 16 عاما، وصف هذا الأخير "تشات جي بي تي" بـ"مدرب الانتحار" الخاص به. لكن دعوى آدامز مختلفة: إنها الأولى التي تربط الذكاء الاصطناعي بقتل طرف ثالث بريء، ما يفتح الباب أمام مساءلة الشركات عن "ضرر غير مباشر".

رد الشركات

رداً على الدعوى أعرب ناطق باسم "أوبن إيه آي" عن "حزن عميق تماماً"، مؤكدا أن الشركة "ستدرس الوثائق بعناية". وأضاف "نواصل تحسين تدريب 'تشات جي بي تي' ليتعرف على مؤشرات المشكلات النفسية أو العاطفية، ويتصرف بناءً عليها، ويوجه الأشخاص نحو دعم حقيقي". الشركة تتعاون حاليا مع أكثر من 170 خبيرا في الصحة النفسية لتعزيز نماذج الأمان. وفي نموذج "جي بي تي – 5" الأحدث، خفضت "أوبن إيه آي" الردود غير المناسبة بنسبة 65 إلى 80 في المئة، مقارنة بـ"جي بي تي – 4، كما أطلقت أدوات رقابة أبوية وزر طوارئ بنقرة واحدة.

أما "مايكروسوفت"، الشريك الرئيسي الذي استثمر أكثر من 13 مليار دولار في "أوبن إيه آي"، فاتُهمَت بالموافقة على إطلاق "تشات جي بي تي – 4" بشكل عاجل رغم اختصار اختبارات السلامة. لم تصدر الشركة تعليقاً فورياً، لكنها سبق أن دافعت عن شراكتها قائلة إنها "تعزز الابتكار والمسؤولية في الذكاء الاصطناعي".

هذه الدعاوى تأتي وسط موجة من التحذيرات من عامة المدعين العامين في أكثر من 40 ولاية أميركية، الذين طالبوا الشركات الكبرى بتعزيز الحماية من "الإخراج الوهمي" الذي يعزز الهذيان.

الإمكانيات

يثير هذا تساؤلات فلسفية وقانونية عميقة: هل يمكن للذكاء الاصطناعي أن يتحول إلى "مجرم"، أم أنه مجرد مرآة تعكس عيوب مصممية؟ في الوقت الحالي الذكاء الاصطناعي ليس "كائنا واعيا" يحمل نية إجرامية، بل نظام يعتمد على بيانات تدريبية هائلة للرد على المدخلات، لكن الخبراء يحذرون من "جرائم" الذكاء الاصطناعي كظاهرة ناشئة، حيث يصبح الآلي أداة للإجرام أو يُستخدم لتعزيزه.

وكشفت مجلة "الفلسفة والتكنولوجيا" في عام 2021، وهو ما أكدته تقارير عام 2025، أن أدوات الذكاء الاصطناعي في النظام القضائي، مثل "كومباس" لتقييم مخاطر الإعادة الإجرامية، تفرض مخاطر أعلى على الأميركيين الأفارقة بنسبة مزدوجة مقارنة بالبيض، حتى مع تساوي السجلات الجنائية. هذا ليس "إجراما" مباشرا، بل تعزيز للتمييز الاجتماعي، ما يجعل الذكاء الاصطناعي "شريكا غير مباشر" في الظلم. كما في تقرير وزارة العدل الأميركية لعام 2024، الذي يحذر من أن الذكاء الاصطناعي في الشرطة التنبئية قد يعزز التحيزات العنصرية، ما يؤدي إلى اعتقالات غير عادلة.

و توضح الحادثة في كونيتيكت كيف يمكن للذكاء الاصطناعي أن يعزز الهذيان، خاصة في نماذج مصممة لتكون "مُجاملة" لزيادة التفاعل. وفي عام 2020 وصف بحث "جرائم الذكاء الاصطناعي" بأنها تهديدات تشمل التحرش الافتراضي عبر روبوتات اجتماعية، أو إنشاء محتوى مزيف (ديبفيك) للابتزاز أو التشهير. وفي عام 2025 سجّلت حالات استخدام الذكاء الاصطناعي لإنشاء مواد إباحية افتراضية، ما يعقّد الكشف ويثير تحديات أخلاقية قانونية، كما في تقرير سابق. كذلك، يُستخدم الذكاء الاصطناعي في الاحتيال المالي، حيث يولّد رسائل احتيالية مقنعة أو يخترق أنظمة بنكية، وهو ما يجعله "مجرمًا آليًا" في عالم الجرائم الإلكترونية.

ومع تطور الذكاء الاصطناعي نحو الاستقلالية، يتخوف الخبراء من "أسلحة قاتلة ذاتية"، كما في تقرير "مجلس العدالة الجنائية" لعام 2024، الذي يناقش مخاطر فقدان السيطرة البشرية في القرارات الحياتية أو المميتة. وإذا أصبح الذكاء الاصطناعي قادراً على اتخاذ قرارات مستقلة، من يُحاسب؟ القانون الحالي، مثل القسم 230 من قانون الاتصالات الأميركي، يحمي المنصات من المسؤولية عن محتوى المستخدمين، لكن التطبيق على الذكاء الاصطناعي غامض، كما أظهرت دعاوى 2025 ضد "أوبن إيه آي".

من الناحية الأخلاقية يرى الفيلسوف نيك بوستروم في كتابه "الذكاء الفائق" (2014، محدث 2025) أن الذكاء الاصطناعي قد يتجاوز السيطرة البشرية إذا لم يُبرمج بقيم أخلاقية صارمة، ما يؤدي إلى سيناريوهات "إجرامية" غير مقصودة. وتشير دراسة في "مجلة العلوم والتكنولوجيا" (2024) إلى أن 70 في المئة من الخبراء يخشون أن يصبح الذكاء الاصطناعي أداة لانتهاك الخصوصية أو التحرش الجماعي.

التحديات القانونية والأخلاقية

الدعاوى ضد "أوبن إيه آي" و"مايكروسوفت" ليست معزولة؛ بل هي جزء من موجة تضم 63 دعوى حقوق نشر بحلول ديسمبر 2025، بالإضافة إلى قضايا أخلاقية. في أوروبا، يُطبّق قانون الذكاء الاصطناعي نهجاً مبنياً على المخاطر، يصنّف النماذج عالية الخطورة مثل "جي بي تي – 4" تحت رقابة صارمة. أما في الولايات المتحدة، فإن لجنة التجارة الفيدرالية وهيئة الأوراق المالية بدأتا في 2025 بفرض قواعد على الذكاء الاصطناعي في التمويل والإعلان، لكن النظام القضائي يفتقر إلى إطار موحّد.

أخلاقياً، يبرز التحدي "الصندوق الأسود" للذكاء الاصطناعي، حيث يصعب تفسير قراراته، ما يهدد الشفافية والمساءلة، كما في بحث "هوغان لوفيلز" (2025). كذلك، يثير استخدامه في العدالة الجنائية مخاوف من فقدان "الإنسانية" في القرارات، حيث قد يُعزز التحيزات بدلاً من القضاء عليها.

لمنع تحول الذكاء الاصطناعي إلى "مجرم"، يُقترح إطار أخلاقي متعدد الأبعاد: أولاً، تعزيز الشفافية من خلال إلزام الشركات بنشر بيانات التدريب واختبارات التحيز، كما في توصيات "الجمعية الأميركية للمحامين" لعام 2025. ثانياً، تطوير قوانين مسؤولية خاصة بالذكاء الاصطناعي، تشمل تعويض الضحايا وغرامات على الإهمال، كما في مشروع قانون "الذكاء الاصطناعي المسؤول" المقترح في الكونغرس. ثالثاً، دمج الخبراء الأخلاقيين في عملية التطوير، مع التركيز على الكشف عن المخاطر النفسية، كما فعلت "أوبن إيه آي" مع خبراء الصحة النفسية.

حادثة سولبرغ ليست مجرد مأساة عائلية، بل إنذار لعالم يتسارع فيه الذكاء الاصطناعي نحو الاستقلالية. الآلة ليست مجرماً بطبعها، لكنها دون رقابة أخلاقية وقانونية، قد تصبح شريكاً في الجريمة. كما قال الخبير راي كورزويل "الذكاء الاصطناعي ليس الشر، بل كيف نستخدمه". اليوم، مع تزايد الدعاوى، يجب على الشركات والحكومات أن تضع الحدود قبل فوات الأوان. فالسؤال ليس هل يمكن للذكاء الاصطناعي أن يقتل؟ بل كيف نمنعه من ذلك؟

الخروج عن السيطرة

الطب الصيني في مصر... رحلة شفاء تتسع وثقة تتزايد

القاهرة - داخل غرفة هادئة بإحدى العيادات المتخصّصة في القاهرة، تقف أخصائية العلاج الطبيعي والعلاج بالإبر الصينية الدكتورة عبير النجار أمام طاولتها الخشبية الصغيرة، ترتّب بعناية مجموعة من الأدوات الدقيقة: إبرا معدنية رفيعة، كؤوس حجامة زجاجية، ومشابك صغيرة تستخدم في الجلسات العلاجية. ملامحها الهادئة وحركتها الرصينة توحيان بخبرة طويلة وحضور مهني راسخ. فالطبيبة التي قضت أكثر من عشرين عامًا في دراسة وممارسة الطب الصيني التقليدي، أصبحت اليوم واحدة من أبرز الوجوه التي تسهم في تعميق حضور هذا النوع من الطب في مصر.

تشرح الدكتورة عبير في حديث إلى وكالة أنباء "شينخوا" سرّ ارتباطها بهذا المجال بقولها "الطب الصيني يرى الإنسان جسدًا وروحًا ونفسًا كوحدة واحدة. لا يفصل بين الألم الجسدي والتوتر النفسي، بل يعالج كليهما معًا". وتضيف أن هذا التصور المتكامل كان الدافع الأكبر الذي جذبها إلى دراسة هذا العلم منذ بداياتها المهنية. فالفلسفة الصينية لا تعتمد على الأدوية الكيميائية بقدر ما تعتمد على مساعدة الجسد في استعادة توازنه الداخلي وقدرته الطبيعية على الشفاء.

وتشير إلى أن الكثير من المرضى يؤكدون، بعد جلسات قليلة، أنهم يشعرون بأن الطاقة تسري في أجسادهم من جديد. وترى في هذه اللحظة، لحظة استعادة الجسد لتوازنه، "قيمة لا تقدر بثمن"، بحسب تعبيرها.

لم تكن رحلة عبير النجار نحو الطب الصيني قصيرة أو عابرة، بل امتدت لسنوات طويلة من الدراسة والسفر. فبعد تخرجها من كلية العلاج الطبيعي بجامعة القاهرة، بدأت في أوائل الألفية الجديدة البحث عن تخصص يضيف بعدًا مختلفًا إلى مسيرتها المهنية. وفي عام 2001، قررت التوجه إلى الدنمارك، حيث التحقت ببرنامج متخصص في العلاج بالإبر الصينية استمر ثلاث سنوات في إحدى الكليات الخاصة بالعاصمة كوبنهاغن.

وتتذكر تلك الفترة بوصفها نقطة تحول مهمة، خصوصًا أنها تضمّنت شهرًا دراسيًا في جامعة بكين للطب الصيني عام 2006، أتاحت لها الاحتكاك المباشر بأساتذة وخبراء في هذا المجال، إلى جانب التعرف على أروقة المستشفيات الصينية التي تعتمد على هذه الأساليب العلاجية منذ آلاف السنين. وبعد سنوات من التدريب الأكاديمي والعملي، واصلت دراستها حتى حصلت عام 2012 على درجة الدكتوراه من جامعة نانجينغ للطب الصيني، وهي إحدى أهم المؤسسات المتخصّصة عالميًا في هذا المجال.

في عيادتها بالقاهرة، تستقبل الدكتورة عبير مرضى من مختلف الأعمار والخلفيات، ممن يبحثون عن بديل طبيعي أو علاج تكميلي للحالات المزمنة التي استعصى علاجها. وتشمل قائمة الحالات التي تعالجها: آلام الظهر والرقبة، الصداع النصفي، مشكلات الضغط النفسي، إضافة إلى حالات أكثر تعقيدًا مثل الشلل التشنجي عند الأطفال وبعض اضطرابات الأعصاب.

وترى الطبيبة أن الإبر الصينية والحجامة يمكن أن تحدثا تحسنًا ملموسًا في العديد من هذه الحالات، خصوصًا حين تُمارَس وفق تقنية دقيقة وخبرة طويلة. وتقول "المرضى غالبًا ما يلمسون الفرق بأنفسهم. في بعض الأحيان، مجرد تخفيف التشنج أو تحسين الدورة الدموية يغير حياة المريض بالكامل".

ولا تقتصر شهادات المرضى على ما تقوله الطبيبة فحسب، بل تمتد إلى تجارب شخصية لعدد من المترددين عليها، من بينهم سلطان منصور، مدرب كرة القدم النسائية، الذي عانى لسنوات من آلام الغضروف الهلالي عقب عملية جراحية لم تحقق النتائج المأمولة. رغم خضوعه لجلسات علاج طبيعي تقليدية، ظلت الآلام تلاحقه حتى قرر تجربة الوخز بالإبر.

يقول سلطان "جلساتي مع الدكتورة عبير أحدثت فرقًا حقيقيًا. شعرت بتحسن كبير لم أجده من قبل". وبمرور الوقت، أصبح يوصي بهذه الطريقة العلاجية للرياضيين الذين يدربهم ولأصدقائه، بل ولجيرانه أيضًا ممن يعانون من مشكلات مشابهة أو من إصابات مزمنة.

ويضيف أنه شاهد بنفسه تحسّن حالات أكثر تعقيدًا أحالها إلى الطبيبة، مثل حالات الشلل النصفي والجلطات، معتبرا أن العلاج بالإبر الصينية يمكن أن يصبح أداة مهمة في المجال الرياضي تحديدًا، لمساعدة اللاعبين على التعافي السريع وتحسين أدائهم.

> **يشهد العلاج بالإبر الصينية إقبالا في مصر، مع ازدياد ثقة المرضى بفعاليته في تخفيف الألم وتحسين الحركة**

كما تروي نعمت جلال، ربة منزل، تجربتها مع الإبر الصينية التي لجأت إليها بعد معاناة طويلة من آلام الكعب وآلام مزمنة في الرقبة والكتفين. تقول "أنا مؤمنة بالطب الصيني جدًا. لقد علمت أن الإبر تفتح مراكز الطاقة وتخفف الألم في الوقت نفسه"، مؤكدة أنها لا تشعر بالارتياح إذا مرّت ستة أشهر دون أن تخضع لجلسة علاج واحدة، وأنها توصي أقاربها وأصدقاءها بتجربته.

وتشهد مصر في السنوات الأخيرة انتشارًا ملحوظًا للعلاج بالإبر الصينية، وازديادًا في عدد المراكز التي تقدم هذا النوع من الخدمات. إلا أن النقابة العامة للعلاج الطبيعي تشدد على ضرورة أن يكون ممارسو هذه الأساليب من حاملي المؤهلات المعتمدة فقط.

وفي هذا الإطار، يؤكد الدكتور سامي سعد، النقيب العام للعلاج الطبيعي في مصر، أن الاهتمام بالطب الصيني يتزايد بالفعل، وأن الوخز بالإبر والحجامة أصبحا يُمارسان على نطاق أوسع، لكن ضمن إطار منظم يخضع لرقابة مهنية. ويوضح أن النقابة تنظم ورش عمل متخصصة وفق المعايير المعتمدة في مصر والصين، بهدف ضمان سلامة المرضى ورفع كفاءة الأخصائيين.

ويضيف سعد "الصين دولة عظيمة ومتقدمة جدًا في العلوم الطبية، ومصر حريصة على تعزيز التعاون معها في جميع المجالات، بما في ذلك المجال الطبي"، مشيرًا إلى أن السنوات المقبلة قد تشهد المزيد من التبادل العلمي والتدريب المشترك بين البلدين.

ورغم انتشار الطب الصيني في مصر، فإن معظم الأطباء والمتخصصين يرون أنه ينبغي النظر إليه كعلاج تكميلي يساند الطب الحديث ولا ينافسه. فالإبر الصينية لا تغني عن الأدوية في الحالات الحرجة، لكنها تستطيع أن تخفف الألم، تقلل التوتر، وتساعد المرضى على استعادة التوازن الجسدي والنفسي. وهذا ما يجعلها خيارًا جذابًا، خصوصًا لمن يعانون من أمراض مزمنة أو من آثار جانبية للأدوية الكيميائية.

كل بضوابط علمية

العرب
السبت 2025/12/13
السنة 48 العدد 13684

الملعب الأولمبي بالمنزه «معلم تاريخي» تتجاوز رمزيته المجال الرياضي

المساعي حثيثة لإنجاز مشروع إعادة بناء

أشرف وزير الشباب والرياضة الصادق المورالي على جلسة عمل خُصصت لمتابعة تقدم المراحل الإجرائية الفنية والمالية بين الجانبين التونسي والصيني لإنجاز مشروع إعادة بناء الملعب الأولمبي بالمنزه.

خالد هدوي

تونس - تجمع الأوساط الرياضية والشعبية في تونس على أن الملعب الأولمبي بالمنزه "معلم" تاريخي، تتجاوز رمزيته المجال الرياضي، لتكتسي طابعا حضاريا ومعماريا يحفظ ذاكرة التونسيين. استنكر متابعون للشأن الرياضي عدم مباشرة أشغال إعادة بناء الملعب الذي كان شاهدا على مختلف التظاهرات المحلية والقارية والدولية التي احتضنتها البلاد بعد الاستقلال في 20 مارس 1956.

ويضيف المتابعون أن ملعب المنزه "رمز" رياضي يخاطب الوجدان والذاكرة الشعبية في السنوات الماضية، وسط مطالب ملحّة بالتسريع في عودة "المنزه" كمنارة رياضية ومعمارية تزيّن قلب العاصمة تونس.

وفي السياق، أشرف وزير الشباب والرياضة التونسي الصادق المورالي على جلسة عمل خُصصت لمتابعة تقدّم المراحل الإجرائية الفنية والمالية بين الجانبين التونسي والصيني لإنجاز مشروع إعادة بناء الملعب.

فتحي المولدي

ملعب المنزه شاهد على تاريخ الرياضة التونسية

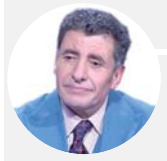

نبيل خيرات

خلافا لبعده الرياضي المنزه يحظى ببعد سياسي واجتماعي

والملعب الأولمبي بالمنزه، ملعب رياضي متعدد الاختصاصات يقع بالمنزه بتونس العاصمة، تم بناؤه سنة 1967 بمناسبة ألعاب البحر الأبيض المتوسط على أنقاض ملعب يونغ بيريز، وتبلغ طاقة استيعابه 45 ألف متفرّج. وتمت تهيئته سنة 1994 لاحتضان كأس الأمم الأفريقية لكرة القدم كما استقبل البطولة ذاتها سنة 2004. وظل المنزه ملعب العاصمة الرئيسي إلى حين إنشاء الملعب الأولمبي برادس (تم تغيير اسمه إلى الملعب الأومبي حمادي العقربي برادس لاحقا).

معلم تاريخي

وأفاد أستاذ القانون الرياضي فتحي المولدي بأن "الملعب الأولمبي بالمنزه هو ملعب تاريخي، احتضن أكبر تظاهرة رياضية في تونس بعد الاستقلال وتم تدشينه في سنة 1967 بمناسبة احتضان تونس لألعاب البحر الأبيض المتوسط، وهو شاهد على تاريخ الرياضة التونسية، وكان مركّبا كاملا يحتوي على القاعة المغطاة والمسبح الأولمبي".

وأضاف في تصريح لـ"العرب"، "المنزه احتضن مباراة تاريخية حيث فازت تونس على مصر بنتيجة أربعة أهداف لهدف في العام 1977 وهو ما مكّنها من التأهل لأول مرة في تاريخها إلى نهائيات كأس العالم بالأرجنتين 1978". ولفت فتحي المولدي إلى أن "كل من يمرّ من منطقة المنزه يسترجع العديد من الذكريات، كما أن يوم تدشين الملعب أحرز العدّاء التونسي محمّد القمودي ميدالية ذهبية".

وفي سؤاله حول إمكانية نقل ملعب المنزه إلى مكان آخر نظرا لاكتظاظ تلك المنطقة وتوسع التجمعات السكنية بها، شدّد المولدي على أن "الإبقاء على الملعب في مكانه أمر لا يقبل النقاش، ومن المبدأ أن يظلّ الملعب في مكانه"، متسائلا "ما زلنا ننتظر إعادة بناء الملعب منذ 10 سنوات، في وقت تمّ بناء ملعب في مدينة بنغازي الليبية خلال 18 شهرا، ونفس الأمر في المغرب الذي سيحتضن نهائيات كاس أفريقيا بملاعب عديدة".

وأشار الناقد الرياضي إلى أن "كلفة الملعب في البداية كانت في حدود 30 مليون دينار والآن هي في حدود 80 مليون دينار، ونأمل أن تكون الأمور جدية لانطلاق الأشغال لأن المنزه معلم من معالم الرياضة في تونس، ووجب تناول الملف بكل جديّة وبإرادة صادقة".

ولئن اعتبرت أوساط رياضية أن ملعب المنزه يظل معلما تاريخيا، وسط تمسّكها بالحفاظ على مكانه الطبيعي، يرى متابعون للشأن الرياضي في تونس أن من الممكن بناء ملعب جديد خارج مناطق السكن لتجنب مشاكل الاكتظاظ وغيرها، مع استغلال منطقة المنزه في مجالات أخرى. وأكد المعلق الرياضي نبيل خيرات أن "ملعب المنزه جزء من الذاكرة الوطنية للتونسيين، وخلافا لبعده الرياضي يحظى أيضا ببعد سياسي واجتماعي، وهو معبد في تاريخ الرياضة التونسية".

أكبر الانتصارات

وأوضح في تصريح لـ"العرب"، "بعد الاستقلال تملك تونس ملعبا وحدا وهو ملعب الشاذلي زويتن، ثم فكّر الرئيس الأسبق الزعيم الراحل الحبيب بورقيبة في بناء مدينة رياضية بالمنزه منها ملعب كرة القدم، وتكونت حوله التجمعات السكنية فيما بعد أو ما يعرف بالمنازه".

وتابع خيرات "المنزه شهد أكبر انتصارات المنتخب والنوادي التونسية، وفيه أحرز النادي الرياضي البنزرتي لقب كأس الكؤوس الأفريقية في 1988، والنادي الأفريقي توّج فيه بلقب رابطة الأبطال الأفريقية سنة 1991، وكذلك الترّجي الذي توج كبطل لنفس المسابقة في سنة 1994، بالإضافة إلى كونه مثّل مسرحا فنيا حيث احتضن حفلا للفنان العالمي مايكل جاكسون".

ولفت المعلق الرياضي إلى أن "في البداية وعند بناء الملعب كانت منطقة المنزه مهجورة ثم شهدت توسعا عمرانيا سريعا، والآن لوجستيا من الصعب جدا أن يتم استغلاله لاحتضان المباريات الكبرى، ومن الأفضل استغلال تلك المنطقة لفائدة الدولة مع البحث عن قطعة أرض أخرى يتم فيها بناء ملعب".

وبشأن أفضل المباريات التي علّق عليها في مدرّجات المنزه، قال نبيل خيرات "هي بلا شكّ ما أسميه بمباراة القرن والتي فاز فيها النادي الأفريقي على النجم الساحلي في ديسمبر 2007، وهدف زهير الذوادي، وهي مباراة أقيمت على أرضية ملعب المنزه لحساب الدوري المحلي بعد عودة النجم من مشاركته في كأس العالم للأندية باليابان". وظلّ فريقا العاصمة، الترجي الرياضي التونسي والنادي الأفريقي يستقبلان منافسيهما في هذا الملعب. وشهد هذا الملعب أيضا بعض العروض الموسيقية أبرزها حفل الفنان مايكل جاكسون في أكتوبر 1996، وماريا كاري في يوليو 2006.

حلم نهائي كأس القارات للأندية يراود بيراميدز المصري من بوابة فلامنغو

القاهرة - يسعى فريق بيراميدز المصري إلى تحقيق إنجاز تاريخي لم يصل إليه أي فريق في بلاده من قبل، حين يواجه فريق فلامنغو البرازيلي السبت. ويلتقي بيراميدز مع فلامنغو في الدور نصف النهائي لبطولة كأس القارات للأندية (كأس إنتر كونتيننتال)، تحت مسمى "كأس التحدي"، وذلك على ملعب أحمد بن علي في العاصمة القطرية الدوحة.

وسيكون بيراميدز على موعد مع التاريخ في مشاركته الأولى ببطولة عالمية، وفي حال عبوره عقبة فلامنغو سيصبح أول ناد مصري يتأهل لنهائي كأس إنتر كونتيننتال. وكان الأهلي المصري قريبا من تحقيق هذا الإنجاز في النسخة الماضية من المسابقة، التي شهدت صعوده أيضا للمربع الذهبي، غير أن خسارته بركلات الترجيح أمام باتشوكا المكسيكي حالت دون تحقيقه هذا الحلم.

وفجر بيراميدز مفاجأة من العيار الثقيل، بعدما توج بلقب دوري أبطال أفريقيا في نسختها الماضية للمرة الأولى في تاريخه عقب تغلبه 3 – 2 على ماميلودي صن داونز الجنوب أفريقي، في مجموع مباراتي الذهاب والعودة بالدور النهائي للمسابقة القارية.

وواصل الفريق المصري تألقه القاري عقب نيله كأس السوبر الأفريقي بفوزه 1 – 0 على نهضة بركان المغربي في أكتوبر الماضي. وشق بيراميدز طريقه نحو نصف نهائي كأس إنتر كونتيننتال بعد فوزه على ضيفه أوكلاند سيتي النيوزيلندي 3 – 0 في القاهرة، قبل أن يحقق انتصارا ضخما 3 – 1 على مضيفه أهلي جدة السعودي، حامل لقب دوري أبطال آسيا للنخبة، في سبتمبر الماضي ليتوج بكأس القارات الثلاث (أفريقيا، آسيا، المحيط الهادئ).

وفي المقابل توج فلامنغو بلقب كأس أميركا الجنوبية للأندية (كوبا ليبرتادوريس)، بعد فوزه 1 – 0 على مضيفه بالميراس، في المباراة النهائية للمسابقة القارية التي أقيمت في العاصمة البيروفية ليما الشهر الماضي. وحجز الفريق البرازيلي مقعده في الدور نصف النهائي لكأس إنتر كونتيننتال، بعدما تغلب بصعوبة 2 1– على كروز أزول المكسيكي، حامل لقب دوري أبطال اتحاد أميركا الشمالية والوسطى والكاريبي لكرة القدم (كونكاكاف) بملعب أحمد بن علي، ليحرز كأس ديربي الأميركتين.

ولم يسبق لبيراميدز أن واجه أي فريق من البرازيل على الإطلاق، بينما سبق لمواطنه الاهلي أن التقى بالأندية البرازيلية في 7 لقاءات بالمسابقات العالمية، خسر خلالها في 6 مباريات، وفاز في مواجهة وحيدة بركلات الترجيح.

وبلغة الأرقام، فإن فلامنغو يتفوق بفارق كبير على بيراميدز، حيث تبلغ القيمة التسويقية للفريق المتوج مؤخرا بلقب الدوري البرازيلي هذا الموسم 186.5 مليون يورو حسب موقع "ترانسفير ماركت" العالمي، بينما تبلغ قيمة لاعبي بيراميدز التسويقية 23.38 مليون يورو.

ويعد صمويل لينو الأغلى قيمة تسويقية بين لاعبي فلامنغو بـ20 مليون يورو يليه المهاجم بيدرو بـ18 مليون يورو، فيما يعد البرازيلي إيفرتون الأغلى تسويقيا في بيراميدز المصري بقيمة 8.2 مليون يورو.

وحرص فريق بيراميدز على الوصول إلى الدوحة مبكرا، حيث خاض لاعبوه تدريبات قوية، ركز فيها الكرواتي كرونوسلاف يورتشيتش، المدير الفني للفريق، على اللعب السريع وضرورة التركيز الشديد.

وأكد يورتشيتش على لاعبيه أن الفريق المنافس سيختلف أداؤه عن المباراة التي خاضها أمام كروز أزول نظرا لتأقلمه مع الأجواء وفارق التوقيت، كما أنه يملك نفس الطموح في التأهل لنهائي البطولة لمواجهة باريس سان جرمان الفرنسي، حامل لقب دوري أبطال أوروبا، يوم الأربعاء المقبل في الملعب نفسه الذي ستقام عليه المواجهة.

ويعول يورتشيتش على خبرات لاعبيه في عبور تلك العقبة، خاصة المغربي محمد الشيبي والكونغولي الديمقراطي فيستون مايبلي، هداف الفريق وأحد أفضل لاعبيه، الذي أحرز ثلاثة أهداف (هاتريك) في شباك أهلي جدة، غير أن بطل أفريقيا يفقد في المواجهة جهود رمضان صبحي وشريف إكرامي.

يورتشيتش يعول على خبرات لاعبيه في عبور تلك العقبة، خاصة المغربي محمد الشيبي والكونغولي الديمقراطي فيستون مايبلي

على الجانب الآخر حرص فيليبي لويس، المدير الفني لفريق فلامنغو، على تحذير لاعبيه من مواجهة بيراميدز، وشدد على لاعبيه ضرورة نسيان مواجهة كروز أزول ونتيجتها خاصة أن المنافس قد يبدو غامضا بالنسبة إليهم لكنه فريق قوي للغاية رغم حداثة عهدة.

مشوار استثنائي في بطولة كأس العرب يرفع سقف طموحات منتخب فلسطين

الدوحة - يطمح المنتخب الفلسطيني إلى "الأفضل" بعد مشواره الاستثنائي في بطولة كأس العرب لكرة القدم التي ودعها الخميس من ثمن النهائي بأداء صلب أجبر من خلاله نظيره السعودي، المتأهل إلى مونديال 2026، على خوض شوطين إضافيين كي يحجز بطاقته إلى دور الأربعة من البطولة المقامة في قطر.

على ملعب لوسيل وبعد إنجاز بلوغ ثمن النهائي للمرة الأولى في المشاركة السادسة، متجاوزة مجموعة ضمت تونس وقطر المضيفة المتأهلتين إلى مونديال 2026، صمدت فلسطين أمام السعودية قبل أن تنتهي مغامرتها 1 – 2 بهدف سجله محمد كنو في الدقيقة 115. وستخوض السعودية نصف النهائي للمرة السادسة في المشاركة الثامنة، علما أنها توجت باللقب عامي 1998 و2002، لتواجه الفائز من مباراة الجمعة بين العراق والأردن.

وبعد توديع بطولة عنت الكثير للفلسطينيين بسبب حرب غزة التي بدأت في أكتوبر 2023 وأودت حتى الآن بحياة 70373 شخصا، معظمهم من المدنيين، وفق بيانات وزارة الصحة التابعة لحماس، قال مدرب المنتخب إيهاب أبوجزر وفق ما نقل عنه موقع الاتحاد الدولي للعبة "نبارك للمنتخب السعودي، لعبنا مباراة قوية، وكنا ندا حقيقيا لهم، كنا نرغب في أن نواصل مغامرتنا في البطولة".

وواصل "لعبنا بتكتيك الصمود لأطول فترة ممكنة، قبل أن نبدأ بالبحث عن تسجيل الهدف، لكن ما حصل أننا تلقينا هدفا". وتقدمت السعودية في الدقيقة 58 من ركلة جزاء انتزعها سالم الدوسري ونفذها فراس البريكان بنجاح، لكن المنتخب الفلسطيني لم يتأثر وأدرك التعادل بعد 6 دقائق بهدف لعدي الدباغ.

بالنسبة إلى أبوجزر "الأهم أننا استطعنا أن نبني منتخبا يملك شخصية في الملعب وقادرا على أن ينافس أقوى المنتخبات، حيث واجهنا ثلاثة منتخبات تأهلت إلى بطولة كأس العالم، لذلك نحن راضون عمّا قدمه اللاعبون. لقد قدموا أداء رائعا حاولوا من خلاله إسعاد الشعب الفلسطيني، لذلك نحن بحالة رضى، ونطمح للأفضل".

أما صاحب الهدف الفلسطيني عدي الدباغ فتمنى في حديث لموقع الاتحاد الدولي "حظا أوفر للاعبي المنتخب الفلسطيني في ما هو قادم. كنا نرغب في التأهل، لكن تفاصيل صغيرة حرمتنا من الفوز، هذه هي كرة القدم، تلقينا هدفا في الدقائق الأخيرة حرمنا من مواصلة المشوار".

ورأى الدباغ، الذي لم يتوقف عن الكفاح رغم معاناته من إصابة في الكاحل، أن "اللعب بالتنظيم الدفاعي يساعدنا على الصمود"، دون أن ينسى من وقف خلف المنتخب طيلة البطولة، إذ شكر الجماهير الفلسطينية "على كل ما قدمتموه من أجلنا، وعلى الدعم، كنا نرغب في أن نفرحكم، لكن هذه حال كرة القدم".

المنتخب الفلسطيني يطمح إلى «الأفضل» بعد مشواره الاستثنائي في بطولة كأس العرب لكرة القدم التي ودعها الخميس

ومن جانب السعودية، قال علي مجرشي الذي كان أحد نجوم اللقاء، وفق ما نقل عنه موقع الاتحاد الدولي "الحمد لله، تمكنا من الظفر ببطاقة التأهل، صحيح أننا لم نفعل ذلك خلال الدقائق التسعين لكن هذه هي ظروف المباراة، يبقى الأهم هو الفوز والتأهل. ونقول حظًا أفضل للمنتخب الفلسطيني في القادم".

ورفض مجرشي في حديثه تفضيل منتخب على آخر في ما يخص مواجهة نصف النهائي، مشيرا إلى أن المنتخب السعودي مهمته تنحصر في الكفاح على أرض الملعب، قبل أن يضيف "نتمنى التوفيق للجميع، نحن مهمتنا أن نؤدي المطلوب منا في المباراة القادمة".

ورأى أن مواجهة الأردن أو العراق لن تقل صعوبة عن بقية مباريات البطولة لأنه "لا توجد مباريات سهلة، كل مباريات البطولة صعبة، مهمتنا أن نكافح في الملعب، ونتمنى التوفيق". وأقر المدرب الفرنسي للسعودية هيرفيه رينارد بالصعوبة التي واجهها فريقه في مباراة الخميس، لكن "حققنا الفوز وهذا هو الأهم. لكن أعتقد أنه يجب علينا تهنئة لاعبي منتخب فلسطين، حيث كافحوا بشراسة للمباراة الخامسة على التوالي (مع الدور التأهيلي) وقد أبلوا بلاء حسنا. نحن سعداء حقا بالوصول إلى نصف النهائي، لكن نهنئهم أيضا على عملهم".

مجهودات خارقة

العرب
السبت 2025/12/13
السنة 48 العدد 13684

التراث السوري.. ذاكرة جماعية تحميها اليونسكو

سجلت اليونسكو ثمانية عناصر من التراث السوري اللامادي، مؤكدة على عمق هويتها الحضارية. تشمل القائمة البشْت وصابون الغار الحلبي والزجاج المنفوخ وصناعة العود والقدود الحلبية والوردة الشامية ومسرح خيال الظل والصقارة، وهو ما يعزز حضور سوريا الثقافي عالميًا.

دمشق - يُشكّل التراث الثقافي اللامادي ركناً أصيلاً من هوية سوريا، بما يحمله من فنون وعادات وممارسات متوارثة تعكس عمق تاريخها ومكانتها الحضارية كمهد للحضارات. إن هذا التنوع الغني، الذي يروي حكاية آلاف السنين من الإبداع والمهارة، لم يغب عن أنظار منظمة الأمم المتحدة للتربية والعلم والثقافة (اليونسكو)، التي سجّلت عدداً من العناصر السورية على قوائم التراث العالمي. هذا الإدراج المتنامي لموروث سوريا الأصيل لم يعزز فحسب حضورها على الخارطة الثقافية الدولية، بل أكد أيضا على مسؤوليتها تجاه صون هذه الكنوز الإنسانية المشتركة.

وتضم قائمة سوريا في التراث الثقافي اللامادي لدى اليونسكو ثمانية عناصر مميزة، تمثل شهادة حية على التمازج الحضاري والمهارات اليدوية والفنية التي توارثتها الأجيال. هذه العناصر هي: البشت، صابون الغار الحلبي، الزجاج المنفوخ يدويا، صناعة العود والعزف عليه، القدود الحلبية، الوردة الشامية، مسرح خيال الظل، والصقارة. تشكل هذه المجموعة المتنوعة لوحة متكاملة تعكس ثراء الموروث السوري وتبرز مكانته كجزء أصيل من التراث الإنساني المشترك الذي يستحق الحماية والاحتفاء.

شهد العاشر من ديسمبر الجاري، خلال الدورة العشرين للجنة الحكومية الدولية لصون التراث الثقافي اللامادي في نيودلهي، إدراج البشْت على القائمة التمثيلية للتراث الثقافي. والبِشت هو عباءة رجالية تقليدية، تُعد رمزاً للفخامة والأناقة والأصالة في العالم العربي، كما أنها تعكس قيمة اجتماعية رفيعة لمن يرتديها.

وجاء إدراج صابون الغار الحلبي خلال الدورة التاسعة عشرة للجنة الحكومية الدولية لصون التراث الثقافي اللامادي في الباراغواي بتاريخ الـ3 من ديسمبر 2024. هذا القرار كان تكريماً لمدينة حلب، التي احتضنت الفن التقليدي لصناعة هذا الصابون الطبيعي، والذي يعود تاريخه إلى آلاف السنين. يعتمد الصابون الحلبي على زيت الزيتون وزيت الغار والمكونات الطبيعية، ويتم تصنيعه بالطرق اليدوية التقليدية، ليُصبح سفيراً للمهارة الحلبية في جميع أنحاء العالم. إدراجه يضمن استمرار هذه الحرفة الأصيلة وحمايتها من الاندثار.

وتُعد حرفة الزجاج المنفوخ يدويا حرفة دمشقية عريقة، تعتمد على مهارة الحرفي في نفخ الزجاج المنصهر بأنبوب خاص وتشكيله يدوياً قطعةً قطعة.

ونظرا لما تعرضت له هذه الحرفة من تحديات، خاصة خلال سنوات الأزمة، أُدرجت في الـ5 من دسيمبر2023 على قائمة الصون العاجل. يهدف هذا التصنيف إلى لفت الانتباه الدولي وتوفير الدعم اللازم لحماية ونقل هذه المهارة الفريدة التي تواجه خطر الاندثار، وضمان استمرار إنتاج الأواني والتحف الزجاجية الملونة التي تشتهر بها دمشق.

وأُدرجت صناعة العود والعزف عليه في أواخر عام 2022. ويبرز هذا الإدراج التميز الحرفي للعود السوري، الذي يتميز بصوته النقي وجودة صنعه اليدوي المتقن. العود ليس مجرد آلة موسيقية، بل هو جزء من الوجدان الموسيقي العربي. والإدراج يضمن استدامة هذه الحرفة التي تنتقل عبر الأجيال، ويسلط الضوء على دور الصانعين السوريين في إثراء الموسيقى الشرقية.

وأُدرج فن القدود الحلبية في ديسمبر 2021 خلال الدورة السادسة عشرة للجنة الدولية. هذا الإدراج هو اعتراف عالمي بهذا الفن الموسيقي الأصيل المرتبط بمدينة حلب. القدود هي قوالب لحنية قديمة صِيغت عليها نصوص جديدة، وهي تعكس عمق التراث الموسيقي والشعري للمدينة، وتعزز مكانتها كجزء من الهوية والتراث الإنساني.

وشهد شهر ديسمبر 2019 إدراج الوردة الشامية، إلى جانب الممارسات والحرف التقليدية المرتبطة بها في قرية المراح بريف دمشق. هذه الوردة، التي تُعرف بعبيرها الفواح، لا تُستخدم فقط في صناعة العطور والمربيات والأدوية، بل تمثل رمزاً للجمال والتراث الزراعي السوري. الإدراج يحمي المهارات المرتبطة بزراعتها وقطفها وتصنيع منتجاتها التقليدية.

وأُدرج مسرح خيال الظل عام 2018 ضمن قائمة التراث الثقافي اللامادي الذي يحتاج إلى صون عاجل. هذا الفن الشعبي يعتمد على تحريك دمى خلف ستارة بيضاء، ويضم شخصيات أيقونية مثل "كراكوز" و"عيواظ". أما الصقارة فسُجلت عام 2016 بالتعاون مع عدة دول عربية أخرى، وتُعد جزءاً من التراث الإنساني، إذ تعكس تقاليد تربية الصقور والصيد بها كجزء من الحياة البدوية والريفية الأصيلة. وعناصر التراث اللامادي السوري تعكس تاريخاً ممتداً عبر آلاف السنين، وإدراجها على قوائم اليونسكو يفتح الباب أمام العالم للتعرف على غنى الثقافة السورية، ويؤكد أن الحفاظ على هذا الإرث مسؤولية جماعية تتجاوز الحدود الوطنية. يُذكر أن سوريا انضمت إلى اتفاقية صون التراث الثقافي اللامادي عام 2005.

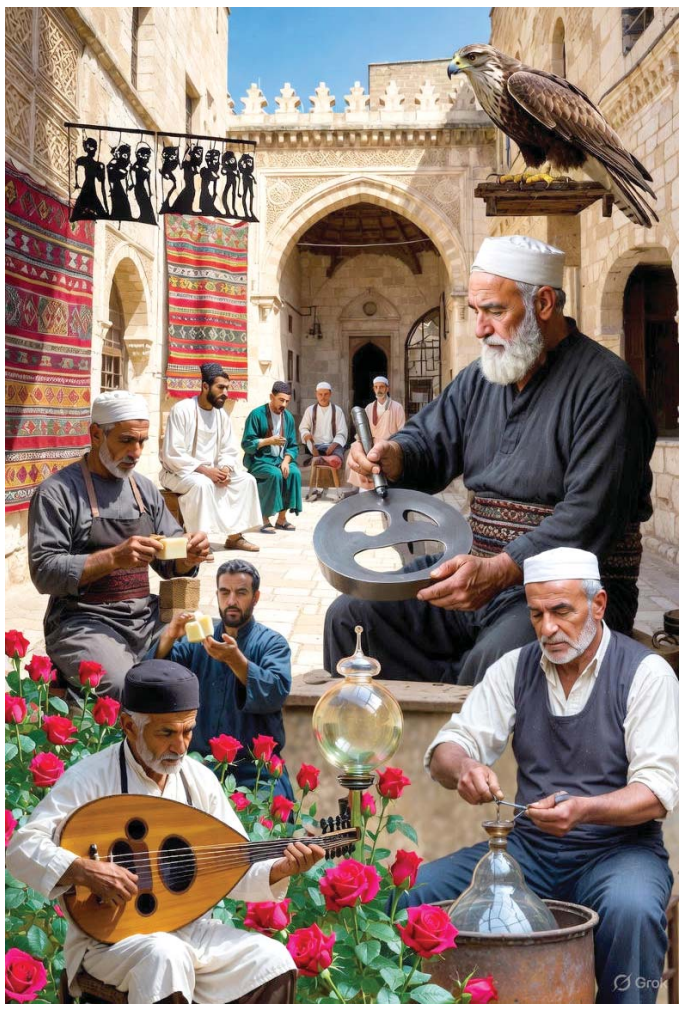
من الوردة الشامية إلى خيال الظل

موسيقى الحرس السلطاني العماني تبهر زوار كتارا

الدوحة - في حدث ثقافي وعسكري رفيع المستوى، ستشارك موسيقى الحرس السلطاني العماني بقوة في النسخة الأولى من مهرجان الدوحة الدولي للموسيقى والمشاة 2025 (الدوحة تاتو)، الذي سيُقام في الحي الثقافي كتارا خلال الفترة من 16 إلى 20 ديسمبر الجاري، تحت رعاية دولة قطر.

وتُعد هذه المشاركة العمانية البارزة امتدادا لسمعة موسيقى الحرس السلطاني العالمية التي تتميز بالدقة العالية والأناقة البصرية والإبداع الصوتي، حيث ستُقدم الفرقة العمانية باقة متنوعة من الاستعراضات الموسيقية العسكرية المبهرة، تجمع بين التراث العُماني الأصيل والألحان العربية والعالمية، مع عروض حركية دقيقة تبرز الانضباط العسكري الممزوج بالإتقان الفني الذي اشتهرت به على مدى عقود.

ويحظى المهرجان، في نسخته الافتتاحية، بحضور نخبة من أبرز الفرق الموسيقية العسكرية في العالم، من بينها فرق من بريطانيا وفرنسا وإيطاليا وكوريا الجنوبية والولايات المتحدة وعدد من الدول العربية، ما يجعله منصة دولية متميزة لتبادل الخبرات الفنية والثقافية وتعزيز أواصر الأخوة بين الشعوب من خلال لغة الموسيقى والانضباط.

وأعرب قائد موسيقى الحرس السلطاني العماني عن فخره بهذه المشاركة، واعتبر أنها تعكس عمق العلاقات الأخوية بين سلطنة عُمان ودولة قطر، وتؤكد مكانة التراث الموسيقي العُماني على الساحة الدولية، متمنيا أن تترك الفرقة بصمة مشرفة تليق باسم عُمان وتاريخها الحضاري العريق.

ويُتوقع أن يشهد المهرجان حضورا جماهيريا مكثفا من المواطنين والمقيمين والزوار، في تأكيد على نجاح قطر المتواصل في تنظيم الفعاليات الثقافية والفنية العالمية ذات المستوى الرفيع.

أسماء لمنور تحتفل بالقفطان المغربي

الرباط - تفاعل عدد من الفنانين المغاربة مع القرار التاريخي الذي صوتت عليه لجنة اليونسكو، يوم الأربعاء 10 ديسمبر 2025 في نيودلهي، والقاضي بإدراج القفطان المغربي، بما يحمله من فنون ومعارف وصنعات تقليدية، ضمن قائمة التراث الثقافي غير المادي.

وهي لحظة اعتبرها المغاربة تتويجا لمسار طويل من المحافظة على هوية ضاربة في عمق التاريخ، وانتصارا جديدا للموروث الوطني.

وكانت الفنانة أسماء لمنور من أوائل المهنئين، حيث تقاسمت مع متابعيها على إنستغرام، تدوينة مؤثرة أرفقتها بفيديو يوثق أبرز إطلالاتها بالقفطان المغربي في مناسبات دولية ومحلية.

وقالت في تدوينتها "ألف مبروك للمغرب تسجيل القفطان ضمن التراث الإنساني لليونسكو، شكرا لكل صانع وصانعة حافظوا بإخلاص على هذا الموروث العريق، وشكرا لكل امرأة مغربية اعتزت بتراثها ونقلته لأبنائها".

وخصت لمنور بالشكر الحرفيين الذين أتقنوا تفاصيل "السفيفة" و"العقد" و"التطريز"، والمصممين الذين ارتقوا بالقفطان إلى العالمية، إلى جانب الفنانات والفنانين الذين أسهموا في ترسيخ حضوره.

كما حيت الأميرات المغربيات اللواتي حافظن، عبر العصور، على هذا الزي الوطني، مشيدة بدور وزارة الثقافة والوفد المغربي لدى اليونسكو في بلوغ هذا الإنجاز. ويظهر هذا التفاعل من الفنانين حجم الارتباط العاطفي والثقافي بالقفطان، خصوصا بعد مرحلة من الجدل والتوتر الدبلوماسي بسبب محاولات الجزائر تعطيل الملف المغربي داخل اليونسكو.

ورغم هذه المناورات، تمكن المغرب من تحقيق انتصار تاريخي، حيث صوتت اللجنة الحكومية الدولية لصالح إدراج القفطان باعتباره عنصرا من الهوية المغربية المتوارثة عبر أجيال من الحرفيين والمصممين.

عفراء النعيمي تفتتح موسم لا سكالا بفستان قطري

ميلانو (إيطاليا) - في لحظة تاريخية تجمع بين التراث الشرقي والفخامة الأوروبية، تستعد رائدة الأعمال القطرية والمستشارة الثقافية والناشطة في تمكين المرأة عفراء النعيمي لتكون أول سيدة أعمال خليجية تطأ السجادة الحمراء في حفل افتتاح موسم دار الأوبرا الأسطورية "لا سكالا" بميلانو، مرتدية فستانا حصريا يحمل توقيع علامتها الخاصة "عفراء".

الإطلالة المرتقبة عبارة عن فستان طويل من الشيفون العنابي القطري، ملفوف بأسلوب أنيق وبسيط يحتضن الجسم بلطف، مع طبقات خفيفة تتمايل مع الحركة كأنها نسمة صحراوية تلتقي بضباب لومباردي. اللون العنابي ليس اختياراً عشوائياً، إنه اللون الوطني لدولة قطر، فجاء التصميم رسالة صامتة قوية: المرأة القطرية حاضرة، واثقة، وتكتب اسمها بأحرف من حرير على واحدة من أعرق منصات الفن العالمي.

هذا الفستان ينتمي إلى مجموعة جديدة طوّرت بالكامل في منطقة لومباردي الإيطالية، وأُزيح الستار عنها لأول مرة في سبتمبر الماضي خلال أسبوع الموضة في ميلانو، ضمن عرض حصري أقيم في قصر فيسكونتي التاريخي. كل غرزة فيه تجمع بين الحرفية الإيطالية الرفيعة والروح القطرية الأصيلة، ليصبح جسراً جمالياً بين الشرق والغرب.

وقالت عفراء النعيمي في بيان رسمي "وجودي على سجادة لا سكالا الحمراء ليس مجرد إطلالة، بل هو رسالة تمكين لكل امرأة عربية وخليجية: يمكننا أن نكون في قلب المشهد العالمي بثقافتنا وهويتنا وإبداعنا، دون أن نتنازل عن جذورنا".

صباح العرب

لطيف جابالله
صحافي تونسي

سيمفونية المزود التونسي

تخيّلوا العازف التونسي الشاب أمين العيادي واقفا في قلب قاعة حفلات سيمفونية كبرى، يرفع مزوده التونسي بكل ثقة، بينما يقف خلفه ثمانون عازفا يستعملون أرقى الآلات الكلاسيكية، يصمتون انتظارا لأول نفخة منه. الكمانات، والتشيللو، والنحاسيات، وآلات الإيقاع... كلها تنتظر هذا النفس القادم من قربة تونسية صغيرة لطالما صاحبت الأفراح الشعبية في الأزقة، وكانت مرآة لنبض الناس وحكاياتهم.

هو حلم يبدو للوهلة الأولى رومانسيا، لكنه اليوم أقرب إلى الواقع من أي وقت مضى. فقبل أن يصدح الهادي حبوبة بـ"ليلة والمزود خدام"، ظلّت هذه الآلة الشعبية رفيقة الفرح والحزن، تبكي مع المفارق وتضحك مع العرسان، وتتنقل بين الأعراس والحفلات والساحات كأنها جزء حيّ من المزاج التونسي.

كان المزود يوماً صوت الزندالي في السجون والحارات الضيقة، يحمل شكوى الأسير ومعاناة المهمّشين، ثم صار لحن الزفة في كل دار تونسية، وأيقونة الفرح الشعبي الذي لا يكتمل بدونه. ومع ذلك، لم يعد المزود مكتفيا بهذا الدور القديم، فقد جاء الوقت ليخطو خطوة أكبر، ويتجاوز حدوده التقليدية ليقتحم عالماً طالما بدا بعيدا عنه: عالم الموسيقى السيمفونية.

في السنوات الأخيرة شهد الجمهور التونسي لحظة فنية استثنائية حين التقى المزود التونسي بأخيه البعيد، الباغبايب الإسكتلندي، على خشبة مسرح قرطاج. كان اللقاء مفاجئاً وملهمًا، إذ اكتشف الجمهور أنّ المسافة بين الآلتين أصغر مما تُظهر الجغرافيا؛ فكلتاهما تعتمد على النفس المستمر، وعلى القدرة الفريدة لقيادة الإيقاع واللحن معا. وخلال هذه المواجهات الفنية، برز أمين العيادي كأحد أبرز العازفين الذين حملوا المزود التونسي بثقة وجرأة، فأثبت أن صوته قادر على منافسة أي آلة كلاسيكية في العمق والقوة والحضور.

أما الباغبايب الإسكتلندي فله مع الأوركسترا السيمفونية تاريخ طويل يمتد لعقود. فقد ألّف كبار الموسيقيين قطعا وكونشرتوهات خاصة له، ووقف عازفوه في قاعات لندن ونيويورك وإدنبرة منفردين أمام أعرق الأوركسترات. من الأداءات المؤثرة لـ"Amazing Grace" إلى المقطوعات الحديثة المكتوبة كاملة له، أصبحت القربة الإسكتلندية جزءا طبيعيا من البرامج السيمفونية العالمية، لا ضيفا عابرا.

لقد حان الوقت اليوم ليشقّ المزود التونسي الطريق نفسه، وربما بخطوات أسرع وأكثر جرأة، خاصة مع ظهور جيل جديد من العازفين الذين تلقّوا تكوينا أكاديميا رفيعا في المعهد العالي للموسيقى وفي مؤسسات تعليمية متخصصة. هؤلاء لم يتقنوا العزف فحسب، بل درسوا أيضا إمكانيات تطوير الآلة وإدماجها في هياكل موسيقية أكثر تعقيدا، وفتحوا أبوابا لم يكن التفكير فيها ممكنا قبل عقد من الزمن.

حان الوقت ليبدأ ملحّنون تونسيون كتابة أعمال أوركسترالية تُمنح فيها للمزود مكانة آلة سولو، لا مجرد لون شعبي يزور المنصة ثم يغادرها. فخامة صوت المزود، بما فيه من حدّة ودفء وجرأة، تمنحه قدرة على اختراق النسيج السيمفوني والتفاعل بانسجام مع الآلات الوترية والنحاسية، مما يخلق تضادا صوتيا جميلا وغنيا.

لم يعد المزود مجرد رمز للبهجة الشعبية، ولا رفيقا لأغاني الزندالي فقط، بل صار آلة موسيقية كاملة الأهلية، قادرة على كتابة فصل جديد في تاريخ الموسيقى التونسية والعربية والعالمية. وكل ما يحتاجه الآن هو دعم أكبر من الملحنين، وجرأة من قادة الأوركسترات، وانفتاح من المهرجانات الكبرى لإدماجه في برامجها.

وإذا تواصل الدعم المؤسسي وتزايد اهتمام العالم بالموسيقات التقليدية، فإن المزود التونسي قد يقف، بعد وقت غير بعيد، في قاعات فيينا وبرلين وباريس، وربما يعود إلى مهرجان قرطاج الدولي بكونشرتو تونسي أصيل... يروي قصة شعب كامل من خلال نفخة واحدة.